الحضارة فى الميزان

ألف هذا الكتاب المؤرخ الكبير أرنولد توينبى

ترجمه الأستاذ أمين محمود الشريف

راجعه الأستاذ محمد بدران.

إن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده.. فمهما ارتفع الحد الأدنى لمستوى معيشته المادية فلن يطفىء ذلك ظمأه الروحى الى العدالة الاجتماعية. هذا إلى أن أحدث الاختراعات التطبيقية التى أبدعها أهل الغرب قد حولت التفاوت فى توزيع خيرات هذا العالم بين أغلبية ممتازة وأغلبية غير ممتازة من شر لا يمكن اجتنابه إلى ظلم لا يطاق إحتماله.

هذه العبارة البعيدة الدلالة قالها توينبى فى فصل: (النقطة الحاضرة فى التاريخ)

ويصل توينبى بين الماضى السحيق ويومنا الحاضر فى بساطة لا تخطر على البال.

إن العلوم الحديثة تقدر مدة وجود الجنس البشرى على هذا الكوكب بما لا يقل عن ٦٠٠,٠٠٠ وربما بلغت مليون سنة.

وربما تقدر مدة الحياة بما لا يقل عن ٥٠٠ مليون وربما بلغت ثمانمائة مليون سنة، ويحتمل أن يكون عمر الكوكب ٢٠٠٠ مليون سنة. وإذا قسنا بهذا المقياس الزمنى منها الخمسة أو الستة آلاف من السنين التى شهدت مولد الحضارات والثلاثة أو الأربعة الآلاف التى شهدت مولد الديانات الكبرى - بدت هذه الفترة قصيرة للغاية بحيث يستحيل أن تبدو على خريطة ذات مقياس رسم محدد تمثل تاريخ هذا الكوكب من بدايته حتى الآن فحوادث «التاريخ القديم» تبدو على هذا المقياس الزمنى الحقيقى معاصرة بالفعل لحياتنا مهما تبدو لنا بعيدة إذا نظرنا إليها من خلال العدسات المكبرة التى ينظر بها الفرد الإنسانى الصغير إلى الأمور نظرة شخصية.

ويرى توينبى طريق النجاة أمام الحضارة الغربية: فى عالم السياسة أن ننشىء حكومة عالمية تقوم على نظام دستورى تعاونى.

وعلينا فى عالم الاقتصاد أن نلتمس حلا عمليا بين المشروعات الحرة والإشتراكية.

وفى الحياة الروحية علينا أن نرسى الصرح العلوى للادينية على أسس دينية.

ويرى توينبى أن المهمة الدينية ستكون فى آخر الأمر أخطر هذه المهام جميعا.

ولكنه يعود فيقول عن الشق الأول (السياسى) فى رنة حزن ممزوج بالسخرية:

هل تستطيع الولايات المتحدة وغيرها من البلاد الأوربية أن تتعاون مع الإتحاد السوفيتى عن طريق الأمم المتحدة؟ إنه إذا أمكن أن تصبح الأمم المتحدة حكومة عالمية ذات نظام فعال قوى كان ذلك خير حل لهذه المشكلة.

وينفذ توينبى إلى روح الأخوة فى الإسلام متمثلة فى نظام الحج الإسلامى الذى يراه رباطا جامعا للمسلمين. ومن ثم يتعرض الإسلام للخطر متى توقف الحج. وكان الجبرتى يحس هذا الخطر ويتساءل توينبى (ما هو تقديرنا نحن للإسلام؟ هل فى وسع الجنس البشرى أن يستغنى عن الأخوة الإسلامية التى هى عماد المجتمع فى هذا العصر من عصور التاريخ العالمى؟).

ويتساءل توينبى مرة أخرى:

(ماذا كانت عاقبة هذه الانتصارات القومية الغربية فى نهاية الأمر؟ كانت نتيجتها صفرا مثلما كانت نتيجة الانتصارات الوطنية- وهى لا تقل فى زمانها شهرة عن تلك- التى أحرزتها «الولايات المتنازعة» الصينية التى محاها يسى إن شى هو انجتى من الخريطة فى القرن الثالث ق. م. ذهبت كلها هباء فى هباء (باطل الأباطيل)! أما الإسلام فلايزال باقيا يؤدى رسالته الروحية العظيمة وسيظل يؤديها على مدى الأيام.

و «توينبى» يعتقد أننا قادمون على عصر جديد سيكون الهواء فيه دون المحيط. أو السهوب هو الوسيلة المادية للاتصال بين بنى الإنسان، وسيستطيع الإنسان فى عصر الهواء أن يطير بجناحيه طليقا من القيود التى تربطه بسطح الكرة الأرضية غير المنتظم ماء كان أو يابسا. ومن المحتمل فى عصر الهواء أن تكون الجغرافية البشرية لا الطبيعة هى التى تحدد مركز الثقل فى الشئون الإنسانية، فيحدده توزيع عدد السكان ونشاطهم ومقدرتهم ومهارتهم وأخلاقهم لا المحيطات والبحار ولا السهوب والصحارى، ولا الأنهار وسلاسل الجبال ولا الممرات والمضايق. وسيكون لعدد السكان من بين هذه العوامل البشرية من الأثر فى النهاية أكبر مما كان له فيما مضى.

ويبشر توينبى أو ينذر، لست أدرى، بأن الفلاحين فى جميع أنحاء العالم، قادمون ويقدر هؤلاء بألف وخمسمائة مليون أى نحو ثلاثة أرباع الجنس البشرى فى العصر الحالى.. وأن هؤلاء فى الهند والصين والهند الصينية واندونيسيا ودار الإسلام وأوربا الشرقية يغطون فى سباتهم العميق ولكنه يؤكد أن نهضة هؤلاء الفلاحين ليست سوى مسألة وقت، وعندما تتحقق هذه النهضة فسيكون لهذا العدد الكبير تأثيره.. وسيكون الدين أكبر سند لهؤلاء بما يدعو إليه من سلطان الله وحده ثم من حقوق الإنسان يقول «توينبى».

فى وسعنا أن نثق من أمر واحد، وهو أن الدين سيكون الأساس الذى تقوم عليه هذه الحركة المضادة ذات القوة المركزية الجاذبة. وهذا الاحتمال ينبهنا مرة أخرى إلى ضرورة إعادة النظر فى مناهجنا الغربية التقليدية الخاصة بدراسة التاريخ وإذا كان أول ما ننصح به هو أن ندرس تاريخنا لا لذاته، بل من أجل الدور الذى قام به الغرب فى توحيد العالم. فإن نصيحتنا الثانية هى أنه يجب علينا عند دراسة التاريخ بوصفه وحدة شاملة أن ننزل التاريخ الاقتصادى والسياسى إلى المرتبة الثانية، وأن نجعل المقام الأول للتاريخ الدينى لأنك لو أمعنت النظر لألفيت أن:

الدين هو الأمر الخطير الذى يهم الجنس البشرى.

وتوينبى يضع الحضارة الغربية فى الميزان فلا يغره ما وصلت إليه من غزو الفضاء بعد الأرض بل يعطيها حجمها الحقيقى من حضارة الإنسان يقول: (اتسع مجال نظرنا الغربى حتى شمل الجنس البشرى كله فى جميع أنحاء الجزء المعمور والمعبور من الكوكب الأرضى، كما شمل جميع العالم النجمى الذى يعد فيه هذا الكوكب ذرة من الهباء لا نهاية لصغرها. ومن حيث الزمان اتسع مجال نظرنا الغربى حتى شمل كافة الحضارات التى قامت وسقطت خلال الستة آلاف من السنين الماضية، كما شمل تاريخ الجنس البشرى منذ ٦٠٠,٠٠٠ أو مليون سنة خلت وتاريخ الحياة على سطح الأرض منذ ٨٠٠ مليون سنة فيما يظن. فما أعجب اتساع أفقنا التاريخى! ومع ذلك فإن نظرتنا التاريخية فى الوقت ذاته قد أخذت تنكمش، وظلت تميل إلى الإنكماش داخل الحدود الضيقة الزمنية والمكانية لجمهوريتنا أو لمملكتنا الخاصة التى اتفق أو كان الواحد منا مواطن فيها، وأقدم الدول الغربية التى بقيت حتى الآن- كفرنسا وانجلترا مثلا- كالبرازيل والولايات المتحدة- لا تشغل سوى جزء صغير جدا من مجموع الجزء المعمور من الأرض.

ويذكرنى ما سمعته عقب تخرجى من كلية الآداب وبدأت أسعى وراء تقوية اللغات كل على حدة فى مدرسة الألسن وفى المعهد الفرنسى بالمنيرة. وقد سمعت به محاضرة عن «الجلواز» سكان فرنسا الأصليين. رأيت مع غيرى فيلما عنهم وكيف كانوا بدائيين يعيشون كسكان الغابات.

ولكنى أسجل أن المحاضر الفرنسى قال فى تلك المحاضرة

وهكذا كانت فرنسا فى الوقت الذى فرغت فيه مصر، منذ آلاف السنين من بناء الأهرامات العظيمة والمسلات الشاهقة.

ويمضى توينبى فى تحجيم الحضارة الغربية فيقول:

من المؤكد أن الحضارات غير الغربية الثمانى عشرة- منها أربعة قائمة وأربع عشرة بائدة- سيتجلى أثرها فى العالم الموحد. وكلما سار العالم الموحد بالتدريج- على مر الأجيال والقرون- فى طريق التوازن بين العناصر الحضارية المختلفة التى يتكون منها، فإن العنصر الغربى سيرتد بالتدريج إلى المكان المتواضع الذى هو كل ما يستطيع أن يطمع فى الاحتفاظ به بفضل قيمته الذاتية إذا قيس بالحضارات الأخرى -قائمة وبائدة- التى استطاع المجتمع الغربى أن يأتلف بها ويؤلف بينها خلال امتداده الحديث.

ويعلل توينبى هذا أو يدمغ الحضارة الغربية على الرغم من غزواتها العلمية وانجازاتها التكنولوجية، بأن الجانب الروحى من الحياة الإنسانية أهم بكثير من رفاهية الإنسان بما فى هذا، الرفاهية المادية. أهم حتى من سيطرته على الطبيعة البشرية.

أقول لقد استعزت الحضارة الغربية بالذهن وحده، بالذكاء وحده فأجدبت الروح. ولا أدل على هذا من أن السويد، وهى من أشد البلاد وفرة فى التكنولوجيات وبعدا عن الحروب، نسبة الانتحار فيها أكبر نسبة بين البلاد.

ويختتم توينبى كتابه بالتركيز مرة أخرى على الدين وكأنه تأكيد لا يحيد. يقول:

لا يكون هذا العالم معسكرا للتدريب الروحى خارج ملكوت الله بل سيكون جزءا من هذا الملكوت- جزءا واحدا فقط وليس أهم الأجزاء.. ومع ذلك فهو جزء له من القيمة المطلقة ما لبقية الأجزاء ومن ثم فهو جزء يمكن أن يكون فيه العمل الروحى وسيكون فيه ذا أهمية وقيمة كبيرتين بل هو العمل الوحيد الذى ستكون له قيمة ظاهرة ودائمة فى عالم يعتبر فيه كل عمل آخر باطلا.

كتاب (تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه)

ألف هذا الكتاب الدكتور عبدالحليم منتصر

كتاب طبع بضع طبعات ومع هذا أراه جديراً بتعريف وتقديم

ليس حديثاً عن الماضى، وليس موضوعاً للتفاخر ولكنه تصحيح تاريخنا العلمى وخاصة وأن كثيرين من مؤرخى العلم، كما يقول المؤلف الدكتور عبدالحليم منتصر يصرون على تأريخ العلم بعصرين لا ثالث لهما، وهما العصر الإغريقى، وعصر النهضة الأوربية الحديثة، التى بدأت فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر) أى بعد الحضارة الإسلامية. هذه الحضارة التى عبرت البحر إلى الأندلس فى أسبانيا إحدى دول أوربا.. وامتد تأثيرها إلى فرنسا وإيطاليا بل وانجلترا التى شاع فيها الفن الإسلامى فى عهد الملكة اليصابات وما بعده وكانوا يسمونه Arabesque وبعد الحروب الصليبية بنى الأوربيون قلاعهم على مثال الحصون العربية فى مضاعفة الجدران وإقامة البروج والأبواب المنحرفة ذات الزوايا القائمة التى تحول دون وصول القذائف إلى الأفنية الداخلية.

كما تأثر بناء الكنائس فى أوربا بالكنائس الشرقية المتأثرة بدورها بالطراز العربى فظهرت فى الكنائس الأوربية الزوايا والبروج المستديرة.

وقد بلغ من نفوذ وسحر الفن الإسلامى على الأوربيين أنهم قلدوه تقليداً حرفيا فنقلوا حروفه على أنها جزء من النقوش. ومن الطريف ما ذكره الأستاذ توماس أرنولد فى كتاب (تراث الإسلام) أنهم عثروا فى إيرلنده على صليب من مخلفات القرن التاسع على الأرجح نقشت البسملة على زجاجة فى وسطه بالحروف الكوفية. واشتملت كنيسة بمدينة فلورنسه فى منظر تتويج السيدة العذراء على أنسجة منقوشة بالحروف العربية.

لقد قلت هذا فى أحد كتبى عن الإسلام أما مؤلف كتاب تاريخ العلم فيقول: إن هناك (ثلاث مغالطات لابد للباحث من التنويه بها وتصحيحها، أما الأولى: فهى إغفال ما قبل العصر الإغريقى من حضارات كالصينية والهندية والسومرية والآشورية والبابلية والفينيقية والمصرية القديمة. إذ أن العلم الإغريقى لا يمكن أن يكون قد ظهر فجأة، أو أنه لم يستفد من الحضارات التى تقدمت عليه فى التاريخ. أما الثانية: فهى إدماج العصر الأسكندرى فى العصر الإغريقى، فقد حملت

الإسكندرية مشعل الحضارات العلمية عدة قرون، صحيح أنها إمتداد للعصر الإغريقى، ولكنها نهضة وطنها مصر ومقرها الاسكندرية وجامعتها القديمة، وما كان بها من مكتبة غنية ومتحف عظيم).

وهنا أفضل ما أجمله المؤلف فى هذه النقطة.

على يد مدرسة الاسكندرية تخرج علماء العالم القديم فى الطب والتشريح والكيمياء والصيدلة والهندسة والفلك.

وعلى يد مدرسة الاسكندرية بعد المسيحية تخرج علماء العالم المسيحى فى هذه العلوم بما ورثناه عن قدمائنا من دراية فيها.

ففى العلوم أسست مصر علم وظائف الأعضاء وعلم التشريح. وهى صاحبة نظرية الذرة وواضعة تذكرة الطب المشهورة باسم تذكرة كرنيليوس كلسوس وظلت الدنيا تستعمل عقاقير مصر القديمة إلى القرن الثانى عشر.

ووضعت مصر غالبية المصطلحات الطبية وعليها تتلمذ جالينوس ولها شهد (نيتولتسكى) فى كتابه الطب الشعبى المقارن.

لقد سبقت مصر بفضل هيروفيلوس العالم طرا فى دراسة الأمعاء الدقيقة كما سبقت إلى اصطناع البحث العلمى بفضل اقليدس صاحب (المبادىء).

ومصر هى التى وضعت فى الفلك حساب الأبقطى.

لقد ألف علماء مصر بالاغريقية بل اصطنع مصريون أسماء إغريقية.. أو أضيف إلى أسماء العلماء المصريين مقاطع إغريقية أشهرها الواو والسين فى نهاية الأسماء وهى علامة التعريف فى اليونانية فحسبت هذه الأسماء اغريقية وهى مصرية.

ساعد على هذا جهل الغرب والشرق باللغة الهيروغليفية فلم يتوصل أحد إلى حل رموزها إلا فى القرن التاسع عشر حين فك شامبليون رموز حجر رشيد.

وسبب آخر قوى أن اليهود بدورهم يروجون للفكرة القائلة بالحضارة اليونانية حتى تطمس الحقبة التى ازدهرت فيها الحضارة المصرية بما أعطت للدنيا وأعطت لليونان وكانت رائدة حجباً

لفضل مصر عليهم وسبقها لهم حتى ليقول (فرويد) وهو من أكبر علمائهم فى كتابه (موسى مصريا) إن عقدة اليهود سبق مصر فى الحضارة.

واصطناع الأسماء الغريبة للتقية حيلة تلجأ إليها الشعوب فى محنتها حتى تمر العاصفة وتبقى هى. والأمثلة كثيرة، لقد قام أبو مسلم الخراسانى بالدعوة للعباسيين وكان صاحب دالة عندهم ومع هذا اصطنع اسماً عربياً.

على أنه إذا كان بعض المصريين فى العهد البطلمى قد تأغرقوا، سطحياً، فى محاولة ارتقاء طبقى أو صراع طبقى، فإن الإغريق فى مصر قد تأقلموا وتمصروا بالقدر نفسه فتعلموا اللغة المصرية وعبدوا آلهة مصرية بل اتخذوا أسماء مصرية وعادات مصرية.

إن العلم الإغريقى يحدده علماء الغرب أنفسهم بما يكنونه من تعاطف مع اليونان بالفترة من ٦٠٠ ق. م إلى سنة ٢٠٠ م أى ثمانمائة سنة ولكن علم مصر تشهد آثاره بألوف السنين.. والشوامخ من أعمالها تؤيد هذا وتشير بإتقانها البالغ إلى ماسبقها من محاولات طويلة فى عملية تطور وارتقاء حتى بلغت هذا الإعجاز الفنى بألوانه.

أعود إلى الكتاب والمؤلف.

يقول المؤلف إنه يعنى بالعلم (كل ما يتصل بالعلوم الطبيعية الأساسية من معارف من رياضيات وطبيعة وكيمياء وفلك وحيوان ونبات وجيولوجيا وتطبيقاتها فى الطب والزراعة والهندسة والصيدلة والبيطرة وما إليها).

كما أنه يعنى بالعرب (كل أولئك الذين ضمتهم الإمبراطورية العربية والوطن العربى والذى امتد يوماً فيما بين مشارف الصين شرقاً، ومشارف فرنسا غرباً).

وهنا أخالف المؤلف الذى أقدره وأكبره.. أخالفه لأن هذا التعريف يعنى المسلمين. حقاً كانت دولة الإسلام والإسلام دولة، يدين بنظرية الأمة الواحدة أى الأمة الإسلامية.

لقد أمدت فارس، الحضارة الإسلامية بالرجال، وأعطت مصر للحضارة الإسلامية البيئة الحضارية بمقوماتها أعطت مصر للحضارة الإسلامية متحف الفن الإسلامى ومدرسة السلطان حسن وهى أروع الآثار الإسلامية معمارياً أعطت مصر العلم والبحث والمساجد والمعاهد والجامعات والأعلام فى كل علم وفن.. وأعطت مصر للإسلام الجامع الأزهر الذى أتمنى له أن

يعـود إلى سـابق مكانتـه فى عهـد الأقـذاذ من علمـائه الذين رأى جـيلنا كوكـبـة منهم مـصطفى عبـدالرازق العظيم كابرا عن كابر والشـيخ المراغى والشيخ عبـدالحليم محمود والشـيخ جاد الحق والشيخ شلتـوت الذى كان على دمائتـه مهيبـا ينتظم سلك الأفذاذ الأجلاء ممن تعـتز بهم مشيـخة الأزهر الشريف والمسلمون في مشارق الأرض ،مغاربها.

وإنها لشـهادة للإسلام أن يـعتنقه أصـحاب الحضـارات القديمة ويؤمنـون به ويتبادلون مـعه الأخذ والعطاء بوصفهم مسلمين.

وإنه لفخـر للعرب أن الدين الذى نزل على أرضـهم ثم اصبح دينا عـالميا اعتنقـته جنسـيات متـعددة وشـعوب أخرى انـتسب إليه المصـريون والفرس والهنـود والأتراك والمغاربة إنتـسب إليه أوربيون أفذاذ فى أقوامهم.

ومن هذا المنطلق وتوثيقاً لواقع مشهود نقول حضارة إسلامـية صنعتها على عينها أمة إسلامية أى مسلمون فى مختلف ديارهم وأوطانهم.

ويألم المؤلف مثلنا لجحود الغرب- إلا قلة منصفـة. يغمز الغربيون، العرب، بأنهم فى أحسن حالاتهم «نقلة» أى ترجـموا ما عند الآخرين ولـكن هذه الترجمة نفـسها تسبق أى نهـضة ولو لم يترجم العرب لأنفقت أوربا مئات السنين فى الترجمة حتى تبدأ فى الابتكار أو الإضافة.

فالحضارة الإسلامية وفرت على الحضارة الغربية الحديثة جهداً خارقاً ووقتاً طويلا.

ويذكر المؤلف أن «لالاند» قد عد الفلكى العربى «البتـانى» من العشرين فلكياً المشهورين فى العالم. كـما عد «كـاردانو» الكندى من الإثنى عشر عـبقرياً الذين ظهـروا فى التاريخ، كمـا يقول «سارتون» عن «ابن الهـيثم» إنه أعظم عـالم طبيعى مـسلم فى التاريخ- وقد لقـب الشيخ الرئيس «ابن سينا» بالمعلم الثالث بعد الفارابى وأرسطو.

حتى حين تنبـثق الإضافة الإسلامـية من رصيد موجود يـحسب لها هذا لا عليها، فـالدكتور مشرفة يقول «صحيح أن حل المعادلات من الدرجـة الثانية كان معروفاً لدى الإغريق وعند الهنود ولاشك أن الخوارزمى قد اطلع على ما لدى الهنود والإغريق من علم رياضى، ولكنا لم نعثر على كتاب واحد يشبه كتاب الخوارزمى، ويقول إنه يميل إلى الظن بأنه لم يكن قبل الخوارزمى من علم يسـمى علم الجبـر، وتتجلى عـبقـرية الخوارزمى فى أنه خلق علـماً من مـعلومات مـشتـته وغـير

متماسكة، كما خلق نيوتن علم الديناميكا من معلومات مشتتة عرفت قبله. لقد كان ينبغى أن ينتقل حساب الهنود وهندسة الإغريق إلى عبقرى كالخوارزمى الذى وضع علم الجبر وعلمه الناس أجمعين.

على أن العلم لا يكفى فيه كتابات سابقة العلم تجريبى يستوجب الممارسة الفعلية والمشاهدات والظواهر والقدرة على الاستنباط والاستنبات أى الموهبة المميزة للعطاء العلمى كالعطاء الفنى.. وتوليد الجديد.

إن الموهبة هنا هى النفاذ ورؤية أشياء تستسر على العين العادية وليس من نظر كمن أبصر ورأى.

وهنا تحضرنى طريفة من الطرائف يحكى الامام الغزالى أن قافلة مسافرة كانت تضم عالماً من العلماء فهاجم اللصوص القافلة وأخذوا ما عندها فصاح العالم: الكراس.. الكراس.. غير عابىء بألوان المتاع المسروقة فكل شىء يمكن تعويضه فى نظر الكاتب أو العالم إلا ما خطته يده.

الطريف هنا أن (شيخ المنصر) أى زعيم عصابة اللصوص، رد على العالم: (العلم فى الراس لا فى الكراس).

على أن المؤلف الدكتور عبدالحليم منتصر يقول إن للتقدم مدلوله الرياضى الفلسفى والحيوى والإجتماعى والروحى، وهذا التقدم فى البناء نحو الارتفاع والسموق، لا يمكن أن يكون إلا على بناء سابق.. وأنه حتى العهود والعصور التى تأخر فيها العلم وتدهور، لاشك أن دراستها تحفز على معرفة أسباب هذا التأخر لتلافيها، كما تدل اللبنات، التى أبقت على البناء قائماً لم ينقض.

ولما كان السبب الذى حدا بالمؤلف العالم إلى تأليف هذا الكتاب هو تخطى الحضارة المصرية، وغمط الحضارة الإسلامية فإنه من حق الحضارتين أن نقف عندهما فى هذا الكتاب لتسجيل لمحات منهما حيث لا يتسع المقال لتغطية إنجازاتهما تغطية كاملة.

عن الحضارة المصرية يقول المؤلف عن علم (عرفت مصر أصول الزراعة، ومسح الأرض، وحساب فيضان النيل، وكذلك ولد علم الهندسة على ضفاف النيل، كما نشأ علم التشريح وتركيب أعضاء الجسم فى الإنسان والحيوان). ص ٢٢.

أقول تعزيزاً لهذا أن «ول ديورانت» فى كتابه (قصة الحضارة) سجل لقدماء المصريين رياداتهم فى الفنون والعلوم والصناعات، وقد رأيت بعينى كذلك حين زرت متحف لندن بعد إعادة ترتيبه موضوعياً، كيف سجل لمصر رياداتها الحضارية.

حين يقول علماء الغرب أن الحضارة الإغريقية قد بدأت سنة ٦٠٠ قبل الميلاد.. يقول: «رالف لنستون» فى كتابه (شجرة الحضارة) الذى ترجمه الدكتور أحمد فخرى أن المصريين القدماء قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة جعلوا من مصر (مركزا لإحدى القفزات الحضارية الهائلة).

وبلغت التقنية المصرية أوجها، وأنتج الصناع المصريون الأوانى النحاسية والحلى الذهبية وتلك المصنوعة من أحجار اللازورد والفيروز، وعرف المحراث الذى خفف مشاق العمليات الزراعية. وأخذت الكتابة الهيروغليفية صورتها النهائية.. وفى هذا الوقت شيدت الأهرامات التى تعتبر أضخم وأعظم ما شيده الإنسان، ويعتبر عملا هندسياً رائعاً. كذلك برع المصريون فى التعدين وصاغوا من الذهب حليا فائقة الدقة والجمال وتفوقوا فى صناعة المينا، وعرفوا صناعة الزجاج الملون، واشتهروا فى تجارة الخشب وتطعيمه بالصدف والعاج وكانوا أول من دبغ الجلود وأول من رسم على الجلد، ونسجوا الملابس الكتانية بمهارة.

وكذلك أسس المصريون القدماء حضارة علمية فى الصيدلة والكيمياء يقول عنها المؤرخ جابين (إن المصريين كانوا منجماً اغترف منه الأقدمون بكل حرية وانطلاق، دون أن يذكروا فضلا لأصحابه الأصليين، وإن العقاقير وأوصافها المذكورة فى أعمال ديسقوريدس وبلينى وغيرهما كان من الواضح أنها مأخوذة من المصريين القدماء).

يقول الدكتور عبدالحليم منتصر (وقد كان المصريون الفراعنة من أول من اكتشف الصفات العلاجية للأعشاب الطبية حيث نشأ العشاب الأول، ونشأت صناعة العقاقير النباتية، وكان (تحوت) أحد العشابين العظام، وهو مؤلف التوليفات التى مكنت الأطباء البشريين من علاج الأمراض وله ستة مؤلفات فى التشريح والأمراض الباطنية وأمراض النساء والجراحة والصيدلة.

والمعتقد أن كلمة Pharmacist وهى المرادفة لكلمة صيدلى فى العربية إنما هى مشتقة من الكلمة الفرعونية «فارماكى».

والآن الكلمة لإغريقى مشهور هو هيرودوت القائل: (إن أغلب علماء الإغريق كانوا يقضون شطراً من حياتهم على ضفاف النيل).

وعقد المؤلف عشرة فصول من (٧-١٦) من الكتاب للعلم فى العصر الإسلامى تكلم فيه عن نشأة المدارس فى العصر الإسلامى ونشأة المكتبات وبيوت الحكمة والعلماء والتقاليد العلمية والبعثات العلمية والرحلات العلمية ورسائل اخوان الصفا التى هى أشبه بدائرة معارف لاشتمالها على خلاصة ما انتهت إليه علوم الأقدمين وعقائدهم).. تكلم عن اللغة العربية التى كانت يوماً هى اللغة العالمية وأنها كانت تحتكر المؤلفات العلمية، لا تكاد تنشر إلا بها.

تحدث عن علوم الإحياء والطب والكيمياء والصيدلة عند العرب.. عن الطب.. عن مكانة العلماء العرب فى تاريخ العلم.. عن الرواد من علماء العرب.. عن مؤلفات علماء العرب- عن جامعة الأزهر، عن أثر العرب فى النهضة الأوربية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العصر الإسلامى اشتهر فيه كثير من النساء بالعلوم الدينية ورواية الحديث والأدب والطب ومنهن من كن شيخات لبعض الشيوخ، تعلموا عنهن ورووا عنهن، وحضروا عليهن الدروس، ويعد ابن عساكر من بين شيوخه وأساتذته الذين تلقى عنه العلم إحدى وثمانين امرأة).

ومع هذا كله يقول الدكتور عبدالحليم منتصر (لا أذكر أنى سمعت خلال دراستى الابتدائية أو الثانوية أو الجامعية اسم عالم عربى واحد ممن سطعوا فى سماء العلم وأتوا بالأعاجيب ونقل عنهم الغرب دون أن يشيروا إليهم).

أقول: هل آن الأوان للتعريف بأعلامنا فى مسيرة الحضارة الإنسانية!

إننا بحاجة إلى معين للثقة تنهل منه الأجيال الحاضرة والقادمة لا للزهو ولكن لإنتفاء الشعور بالنقص وكسر حدة الإنبهار بالآخرين ثم الإنتقال بعد هذا إلى حمل المسئولية بالوراثة الحضارية فالذى له سابقة فى العطاء وسالفة فى الحضارة هو الذى يطالب بالتواصل وصعود المسرح من جديد.. أما العاجز فإنه تسقط عنه الأهلية والتكليف لأن فاقد الشىء لا يعطيه..لنتأهب لعطاء جديد يباركه الله وتزيد به الأوطان.

مقياس النيل

فى جزيرة الروضة يقوم مقياس النيل منذ ٨٦١ م أى الربع الأول من القرن الثالث الهجرى، بعموده الرخامى المثمن المقسم إلى تسعة عشر ذراعا وسط بئر مربع ضلعه ستة أمتار نقشت على جدرانه فوق عقوده بالخط الكوفى الآيات التى حكى القاضى ابن خلكان فى كتابه (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) عن أحمد بن محمد الحاسب (القرصانى) الذى وضع المقياس بأمر المتوكل، أنه قال:

كتبت فى الجانب الشرقى وفى المقابل لمدخل المقياس (بسم الله الرحمن الرحيم وانزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد).

وفى الجانب الشمالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)

وعلى الجانب الغربى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير).

وعلى الجانب الجنوبى (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد).

فصارت هذه الآيات سطورا على وجه الماء.. إذا بلغ سبع عشرة ذراعا لأن هذا وسط الزيادة، ثم جعلت فى الذراع الثامن عشر فى جميع التربيع نطاقا مثل النطاق الذى جعلته علامة للذراع السادس عشر.

وكتبت بإزاء الذراع الثامن عشر سطرا واحدا يحيط بجميع التربيع: (بسم الله الرحمن الرحيم الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار).

وهى كما نرى آيات فيها الجنات والحب والثمر والبهجة والنضرة والرحمة والنعمة.

إنه النيل

وكانت مياه النيل تصل إلى المقياس من ثلاث فتحات فى الجدار الشرقى وعلى مقدار زيادة ماء النيل يتوقف رخاء مصر والمصريين.

والقبة المقامة فوق المقياس يقول الأستاذ حسن عبدالوهاب فى كتابه (الآثار الإسلامية بمصر) أنها حديثة الإنشاء أنشئت فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وزخرفت طبقا لآخر قبة كانت عليه وهدمت منذ قرن ونصف.

وقد أصبح المقياس أثرا تاريخيا بعد أن غدا الإعتماد فى قياس النيل على مقياس حديث أنشأته وزارة الأشغال سنة ١٨٨٧م فى الضلع البحرى لزاوية سلم المقياس بحرى المقياس.

وإلى جوار المقياس يقوم قصر حسن باشا المنسترلى الذى أنشىء سنة ١٨٥٠م وهو نموذج رفيع لقصور القرن التاسع عشر بطرازه ونقوشه وسقف الصالون الداخلى حول الفسقية.

وأروع من هذا كله على روعته، الموقع الخلاب فقد أحاط به النيل من ثلاثة جوانب.

ولما كان المقياس هو الذى يحدد حالة فيضان النيل وبالتالى جباية الضرائب، فقد حاول الخليفة المأمون إدخال ذراع جديدة أقصر من الذراع القديمة فسماها المصريون (الذراع السوداء) لأنها تفرض جباية الأموال قبل استحقاقها.

وقد نقل قصة الذراع الأسواد، عن كتاب العرب المؤرخ ادوارد برنرد Edward Bernard.

إن أذرع المقياس قبل هذا ستة عشر ذراعا وهى تمثل النهاية العظمى للفيضان.

وقد دون هذه الحقيقة كما يقول أمين سامى باشا فى كتابه (تقويم النيل) كثير من الكتاب ولاسيمابلين Pline.

وإلى هذه الحقيقة يشير تمثال النيل الشهير الذى عمل فى عهد البطالسة ونقل بعدها إلى روما فإن حول التمثال ستة عشر طفلا طول كل واحد منهم ذراع واحد إشارة إلى الست عشرة ذراعا واللازمة لرى الأطيان.

وقد وجد أيضا على ظهر أحد النياشين المضروبة فى عهد تراجان Trajan تمثال النيل وعليه ملك صغير يشير بأصبعه إلى الرقم السادس عشر.

ولم يستطع المأمون أن ينقص الأذرع ولكن أنقص طولها بنسبة ١٦/١ أى ذراع فى المجموع لتحل الضرائب عند بلوغ النيل خمسة عشرة ذراعا بدلا من ست عشرة ذراعا!!.

لقد شغل مقياس النيل المصريين والغرباء فكتب عنه جان دى ماندفيل Jean de Mande-vile والبرنس ردزويل Radzi will وبروسير البان Prosper Alpin سنة ١٦٠٠ م وكتب ميلت Mlet وغيرهم.

يقول ادوارد وليم لين ما يؤيد حكايات جداتنا.

وذلك فى كتابه (المصريون المحدثون أخلاقهم وعاداتهم) فى ترجمة الأستاذ عادل طاهر نور Manners and Customs of The Modern Egyptians (ويعلن ارتفاع النيل فى شوارع العاصمة يوميا، إبتداءً من السابع والعشرين من بؤونه (الثالث من يوليو) أو ما يقرب من ذلك، وهناك عدة منادين يقومون بهذه الوظيفة.. فيختص كل منهم بقسم من أقسام القاهرة.

ويجول منادى النيل على العموم فى قسمه مبكرا فى الصباح، وقد يتأخر، ويصحبه ولد.. ويعلن المنادى فى اليوم السابق مباشرة على بدء إعلان ارتفاع النيل اليومى أن الله لطيف بالأراضى، وأن اليوم يوم الأنباء الطيبة وغدا البشرى بالخير.

يبدأ المنادى بالصلاة على النبى، أو يبدأ بقوله:

(يامن تدبيره عظيم) فيجيب الصبى: (مولاى مالى غيرك) ثم يأخذان فى التسبيح بحمد الله إلى أن يقول المنادى: (والله يؤمنى على سر فلان (ذاكرا اسم رب الدار.. ياكريم يالله).

- الصبى: (أى إن شاء الله).

- المنادى: خمسة أو ستة قراريط.. اليوم والرب كريم

- الصبى: صلوا على محمد

وتضاف الجملة الأخيرة خوفا من أن تؤثر رغبة حقود أو نظرة حسود فى ارتفاع النيل فيزول هذا الأثر إذا صلى الحقود على الرسول.

وقبل فتح الخليج بيومين، يقوم المنادى والصبيان المرافقون له برياتهم مبشرين الناس بهذا القول.

المنادى: البحر فاض وزاد

الصبيان: عوف الله

- المنادى: ودار النحاس امتلا- أى امتلأ)

- الصبيان: عوف الله

- المنادى: داشىء من السنة للسنة.

- الصبيان: عوف الله

- المنادى: وتعيشوا إلى كل عام

وغير هذا من مثل (والكريم يحب الكريم) و (له قصر فى الجنة عجب

- وعمدانه جواهر أيتام) (والرطب إذا جنى لا يشبه لصيص البلح) (وله ألف طاقة تنفتح- وفى كل طاقة سبيل).

وعندما يشير المقياس إلى فيضان النيل تكتب سجلات البشائر وقد أوردها ابن الصيرفى فى كتابه (قانون ديوان الرسائل)، «والقلقشندى» فى (صبح الأعشى) ما كتبه ابن قادوس فى البشرى بالنيل، السيوطى فى مخطوطة (كوكب الروضة)، الشيخ جلال الدين المحلى الشافعى فى كتابه مقدمة النيل السعيد، القابسى بدر الدين البلقينى فى كتابه (النيل الرائد فى النيل الزائد وهو مخطوط رقم ٣٨٠ دار الكتب، والسيوطى فى حسن المحاضرة، والمقريزى فى خططه، وابن العمرى فى كتابه (مسالك الأبصار).

ومن أمثلة هذه البشائر:

(إن أولى ما تضاعف به الإبتهاج والجذل، وانفتح فيه الرجاء واتسع الأمل، ما عم نفعه صامت الحيوان وناطقه، وأحدث لكل أحد اغتباطا لزمه وآل ألا يفارقه، وذلك ما من الله به من وفاء النيل المبارك الذى تحيا به كل أرض موات، وتكتسى بعد اقشعرارها حلة النبات، ويكون سببا لتوافر الأقوات فإنه وفى المقدار الذى يحتاج إليه.. فلتذع هذه المثة فى القاصى والدانى لتستعمل الكافة بينهم ضروب البشائر والتهانى، إن شاء الله تعالى).

وإن من يقرأ (الطبقات الكبرى للشعرانى) ليستوقفه ما جاء فى ترجمة الشيخ على الخواص الصوفى المصرى من أنه (كان يكنس المقياس كل سنة ثانى يوم نزول النقطة وينفق على أصحابه ذلك اليوم نفقة عظيمة. يقبض من عبه الدراهم ويعطيها كل من رآه من المستحقين ويزن عليهم كراء المعدية وهو نحو مائة نفس ثم يفرق السكر والخشكنان على أهل المقياس ويصير يبكى ويتضرع ويرتعد كالقصبة فى الريح ثم يطلع يصلى ركعتين ويأمر كل واحد من أصحابه أن ينزل ثم يكنس السلم بمقشط من حديد ويخرج الطين الذى فيه بنفسه لا يمكن أحدا يساعده فيه. وكان يقال إن خدمة النيل كانت عليه وأمر طلوع النيل ونزوله. وريّ البلاد وختام الزرع كل ذلك كان بتوجهه فيه إلى الله تعالى وكان أولياء عصره تقر له بذلك).

هنا بكاء ونشيج من حب كاد يرتفع إلى مقام العبادة.. هنا مصرى مسلم بل صوفى يرى سعادته الكبرى فى أن يكنس للنيل المقياس ويخرج الطين الذى فيه بنفسه لا يمكن أحدا من أن يساعده فيه.

ويحكى ابن إياس عن سنة ستة وستين وثمانمائة عندما تخلف النيل وكيف رسم السلطان للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا به ويتلوا القرآن الكريم والحديث الشريف ويدعوا الله تعالى بزيادة النيل.

كما أقام القاضى علم الدين صالح البلقينى ثلاثة أيام فى المقياس وفى اليوم الرابع زاد ثلاثة أصابع ففرح الناس ورجع القاضى وشق طريقه من القاهرة وأمامه رايات زعفران وانطلقت زغاريد المصريات.

ثم عزل السلطان القاضى يحيى المناوى وأعاد القاضى البلقينى.

وقد ذكر على باشا مبارك فى (الخطط التوفيقية) أن صلاة الإستسقاء أقيمت فى ٧٧٥ هـ، ٨٢٣ هـ - ٨٣٢ هـ، ٨٥٤ هـ، ٨٦٦ هـ، ٨٧١ هـ، ٩٢٢هـ.

كما جاء فى كتاب الخولاجى المقدس أنه (من ثانى عشر شهر بؤونة إلى تاسع شهر بابه يردد آباء الكنيسة المصرية.. أو شية المياه» ومنها:

(تفضل يارب مياه النهر فى هذه السنة باركها)

حتى المستشرقين أمثال كاترمير.. حتى علماء الحملة الفرنسية رصدوا المقياس وسجلوا ما عليه النيل من الزيادة والنقصان.

***

وعند الإطمئنان إلى فيضان النيل، تكتب حجه الوفاء.

وينعقد المجلس الشرعى بسراى المحافظة، محافظة القاهرة.

وبعد إقرار مندوب الحكومة- وزارة الأشغال- ببلوغ النيل حد الزيادة الذى يتوفر به رى الأراضى المصرية، يعلن فضيلة مفتى الديار وجوب جباية جميع أنواع الضرائب المقررة بمقتضى القوانين واللوائح.

وتدور أكواب الشراب وأطايب الحلوى فى فرح الوفاء وقد سعيت إلى دار الإفتاء لأسجل أقدم حجة محفوظة فكان أقصى ما وصلت إليه حجة ١٩١٥ وجدتها فى دار المحكمة الشرعية العليا.

ومن مراسم الإحتفال تسيير الباخرة العقبة من ساحل روض الفرج بأعلامها بين عزف الموسيقى وقصف المدافع تحدوها الزوارق البخارية لتحيتها حتى إذا بلغت العقبة «باسوس» عادت ثانية إلى ساحل روض الفرج ويسمى الشعب هذا الإحتفال «كسر الخليج».

وظل الاحتفال بوفاء النيل بكل تقليدياته حتى سنة ١٩٥٨.

وقد دعوت سنة ١٩٨٤ بالكتابة فى جريدة الأهرام إلى عودة الإحتفال بوفاء النيل واستجاب محافظ القاهرة وظللنا نحتفل به من سنة ١٩٨٤ إى سنة ١٩٨٩.. وتجمد الإحتفال هذا العام لزحف الأحداث وأهمها أزمة الخليج فصلى القلب المصرى فى موعد عيد الوفاء دون أن يزف إليه، أحد، قراءة المقياس إن نبضه، مقياسه.. وكأن شوقى كان يقول بلسان المصريين جميعا.

لى فيك مدح ليس تكلف * أملاه حب ليس فيه تملق
مما يحملنا الهوى لك أفرح * سنطير عنها وهى عند ترزق
فاحفظ ودائعك التى استودعتها * أنت الوفى إذا أؤتمنت الأصدق

اخناتون

يقول الدكتور عبدالمنعم أبو بكر فى كتابه (اخناتون):

اخناتون أول من نادى بالتوحيد

وهو أول من بشر الناس بإله واحد لا شريك له وقال عنه فى نشيده:

أيها الإله الأوحد الذى ليس لغيره سلطان كسلطانه.

يامن خلقت الأرض كما تشاء وطبقا لما تريد.

وما أكثر مخلوقاتك التى نجهلها أنت الإله الواحد الذى ليس كمثله شيء.

ولما كنت وحيدا فى هذا الكون خلقت الإنسان والحيوان الكبير منه والصغير، وكل ما يسعى على قدميه فوق الأرض، وكل ما يحلق بجناحيه فى السماء.

أنت الذى أحللت كل إنسان فى سوريه والنوبة ومصر فى محله، وأنعمت عليه بحاجاته، فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش أيامه المعدودات، وقد تفرقت ألسنتهم بإختلاف لغاتهم وكذلك أشكالهم وألوان أجسادهم أجل لقد ميزت الشعوب.

ويقول الدكتور عبدالمنعم أبو بكر: لقد جعل اخناتون الإله للأمم جميعا إذ ذكر فى نشيده البلاد التى يوليها الإله عنايته قبل أن يذكر مصر وكان هذا الإله ليس مجسما فى صورة البشر بل كان هو الحق خالق حرارة الشمس ومغذيها.

وخالق النيل

أنت خالق النيل فى السماء لبسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر ويسقى حقولهم بما تحتاج إليه. ما أعظم تدبيراتك ياسيد الأبدية فقد وهبت شعوب الجبال نيل السماء (المطر) أما النيل الذى يخرج من العالم السفلى فقد وهبته مصر.

وفى كتابى شخصية مصر أوردت هذه التسبيحة من تسابيح اخناتون:

أنت خالق الجرثومة فى المرأة.

والذى يذرأ من البذرة أناسا

وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه

مهدئا إياه حتى لايبكى

ومرضعا إياه حتى فى الرحم

وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته

حينما ينزل من الرحم فى يوم ولادته

وأنت تفتح فمه تماما

وتمنحه ضروريات الحياة

ويقول:

(أنت الذى تنفخ فى الفرخ وهو مضغة فى بيضته فتهبه الحياة أنت الذى تتم خلقته فينقر البيضة وهو فى باطنها.. فإذا خرج عنها جعل يصئ بقوة تامة وهو يجرى على قدميه ساعة يخرج).

القصيدة طويلة. يقول ول ديورانت فى الجزء الثانى من موسوعة (قصة الحضارة):

ليست هذه القصيدة من أولى قصائد التاريخ الكبرى فحسب، بل هى فوق ذلك أول شرح بليغ لعقيدة التوحيد. لقد قيلت قبل أن يجيء أشعيا بسبعمائة عام كامل[1]. ولعل هذه العقيدة أى عقيدة التوحيد هذه كانت صدى لوحدة عالم البحر المتوسط تحت حكم مصر فى عهد تحتمس الثالث، كما يقول برستد.

وحين يرى اخناتون الله رب الأمم كلها، يعلق ديورانت:

(ألا ما أعظم الفرق بين هذا وبين العهد القديم عهد آلهة القبائل! ثم انظر إلى ما فى القصيدة من مذهب حيوى: إن أتون لا يوجد فى الوقائع والإنتصارات الحربية بل يوجد فى الأزهار والأشجار وفى جميع صور الحياة والنماء.. وأتون هو الفرحة التى تجعل الخراف الصغرى ترقص فوق أرجلها، والطير ترفرف فى مواقعها).

(١) يقول ديورانت (ما بين هذه القصيدة وبين المزمور الرابع بعد المائه من تشابه يغفل عنه الناس لا يترك مجالا للشك فيما كان لمصر من أثر في المزامير.) ص ١٧٥.

كل شيء جميل، هو عند اخناتون، رمز للإله جل جلاله.. (إنه رمز للأبوه الرحيمة ولم يكن مثل (يهوه) إله اليهود رب الحروب بل كان رب الرحمة والسلام) ص ١٧٥.

لقد حرم اخناتون على الفنانين أن يرسموا صورا من خيالهم للإله (لأن الإله الحق فى اعتقاده لا صورة له. وما أسمى هذا من عقيدة) ص ١٧٦.

(ثم ترك اخناتون الفن بعد هذا حرا طليقا عدا شيئا واحدا آخر وهو أنه طلب إلى فنانيه: «بك» ، و «أوتا»، و «نتموز» أن يمثلوا الأشياء كما يرونها.. فصدعوا بأمره وصوروا كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية فى تفصيل ينم عن حب وعطف عظيمين ودقة لا تسمو عليها دقة فى أى مكان أو زمان) ص ١٧٧.

والدكتور أحمد بدوى فى كتابه (فى موكب الشمس) كان يقول دائما عن اخناتون (النبى اخناتون) ويعزز قوله بالآية الكريمة:

(منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) ٧٨ ك غافر/ ٤٠

وألغى اخناتون ألقابه الملكية كلها حين استشعر ضآلة الإنسان مهما بلغ إلى جانب (الله) المتفرد بالعظمة والجلال وسمى نفسه (العائش على الصدق)[1].

هذه مصر.

(١) يقول ديورانت (مابين هذه القصيدة وبين المزمور الرابع بعد المائة من تشابه يغفل عنه الناس لايترك مجالا للشك فيما كان لمصر من أثر فى المزامير) ص ١٧٥.

المآسى التاريخية الكبري

ألف هذا الكتاب الأستاذ حسن الشريف سنة ١٩٣٦ وقيمة هذا الكتاب تكمن فى أنه كما يقول مؤلفه: (مذكرات فى بعض الأحداث التاريخية الكبرى التى عنى ثقاة المؤرخين بتدوينها فى مطولات ضخمة لا يتيسر لكل قارىء أن يقتنيها أو يتوفر على مطالعتها أو يوفق بين الروايات المتضاربة فيها، قد استخلصتها من تلك المطولات وكتبتها.. وراعيت فى كتابتها نوعا من التلخيص لا يخل بصدق الرواية وارتباط الوقائع ولا يفوت على القارىء شيئا من جوهر الموضوع).

ومع هذا يقع الكتاب فى ٢٨٦ صفحة من القطع الكبير.

وقد تناول الكتاب الصراع الذى دار بين الشعب الإنجليزى والملك شارل الأول.

كما تناول القصة المثيرة للمركيزه ده برانفلييه وممن تناولهم الكتاب بتفصيل:

* الملك لويس الثالث عشر
* الكردينال ريشليو
* الملك لويس الرابع عشر وعجائب البلاط
* نابليون بونابرت بأحداث حياته كلها صعودا إلى العرش وهبوطاً إلى المنفى.

ومن المآسى:

* مأساة البرلمان الفرنسى فى قضية شركة بناما
* مأساة الإتجار بالنياشين
* مآسى التآمر بأنواعها.

***

ونبدأ كالكتاب بقصة الملك شارل لعل فيها عبرة لمن يتذكر أو يخشى.

هذا الملك سلك مسلك الطغاة فسلط الله عليه ضبابية الرؤية. قصد يوما إلى البرلمان ونصب من نفسه خطيبا يبين لنواب شعبه معنى سلطة الأمة.. طبعا من مفهومه هو! قال:

لقد أسأتم فهم مهمتكم حين حاولتم أن تمنحوا أنفسكم حقوقا ليست لكم ولا يعقل أن تنالوها يوما من الأيام. إن مجلسكم هذا إشعاع من النور الذى أنا مبعثه، وسلطتكم تلك استمداد من السلطة التى أنا مصدرها، فمن التجنى محاولة تأليب الفرع على الأصل أو التفريق بين الشىء وظله، ولقد سلكتم معى منذ البداية مسلكا لا يرضاه ملك يستمد سلطانه من الله لا منكم فجئت أنذركم بالحسنى قبل أن آخذكم بالعنف، ولأقول لكم إن هذا البرلمان والبرلمانات التى قد تعقبه هى من صنع يدى، ففى يدى بقاؤها وفى يدى حلها وهى تعيش أو تزول وفقا لما يبدو لى من نتائج عملها).

وكانت بداية النهاية.

حل البرلمان أربع مرات متتاليات. فكانت خطى مشاها إلى النهاية.

وجه إليه البرلمان تقريرا يؤاخذه فيه على سقطاته ويطلب إليه أن يلتزم الحدود. فكان رده أن اصطحب حرسه وباغت البرلمان وقت انعقاده وأمر بالقبض على خمسة من زعماء المعارضة فغضب الشعب وذهبت الجموع إلى القصر تهتف بسقوط الاستبداد وتعلن أن الكلمة للأمة التى هى مصدر السلطات.

ولم تلبث الحرب الأهلية أن نشبت واستمرت سجالا طوال سبع سنوات، تولى قيادة الثورة الزعيم «اوليفر كرومويل».

وانتهى الأمر بمحاكمة الملك وصدر الحكم بإعدامه يقول المؤلف:

(وفى الأمسية التى علم فيها الملك بأن غدها تحدد موعدا لإعدامه، لم تبد على محياه أمارات الفزع بل ظل مالكا عواطفه وأعصابه، هادىء النفس رابط الجنان، وأمضى السهرة فى الحديث مع الأسقف وفى الصلاة.

ثم استغرق فى النوم إلى الساعة الرابعة من الصباح واستيقظ نشطا وأيقظ أمينه هيربرت ليعاونه على إرتداء ملابسه.

وكان هيربرت مضطربا مشتت الذهن محزون الفؤاد فلم يوفق فى تصفيف شعر الملك كما يريد فالتفت إليه وقال:

(أرجو أن تعنى برأسى فهو لن يظل فى موضعه طويلا وأريد أن تجعلنى اليوم أنيقا كما لو كنت شابا يزف إلى عروسه. واجعل على ثلاثة أقمصة فوق بعضها فالبرد شديد فى هذا الفصل وأخشى أن تنتابنى قشعيريرة فيظن الناس أنهارعشة الخوف من الموت).

حتى الضعف قادر على السخرية! وهى هنا لون من ألوان القوة بل لقد تبلغ أحيانا قوة التجرد بعد أن أصبحت ليس لديها شيء تخاف عليه.

إن الشعوب التى تواجه الطغاة وتحاكمهم، تحيا لأن طغاتها يموتون ولأن الطغيان نفسه يخشى أن يطل برأسه مع كل حاكم جديد.

فى أول مرة زرت فيها انجلترا، ذهبنا، فيما طفنا به من معالمها السياحية، إلى كنيسة وستمنستر الكنيسة الإنجيلية وهى فى الوقت نفسه مثوى العظماء فى عين الإنجليز، وفى الوقت نفسه، الراحلين من الأسرة المالكة.. قالت المرشدة السياحية الإنجليزية بالطبع، عندما مررنا بقبر شارل الأول ملك انجلترا وفى قبالته الشارع نفسه، وبه قبر كرومول الذى أودى به إلى المقصلة:

«لعلهما يتجاذبان الحديث فى منتصف الليل» أى بعد أن ينام الناس الذى يعرفون ما بينهما من عداوة وقطيعة.

Perhaps at midnight they have a word with each orher.

سخرية من الخصومات والصراعات الطاحنة.

رحم الله شاعرنا أبا العلاء:

رب قبر صار قبرا مرارا * ضاحك من تزاحم الأضداد

***

أما المركيزة ده برانفيلييه التى يقول المؤلف إنها أكبر مجرمة فى التاريخ» فإن ما قرأته عنها فى هذا الكتاب جعلت حكاية ريا وسكينة تتضاءل أمامها.. لا وجه للمقارنة.. ريا فى نقاء الياسمين، وسكينة فى صفاء قطرة ندى فى الفجر، لعدة أسباب:

أن السيدتين المصريتين لم تقتلا مثلها أبا أو أخا أو مريضا.. لقد كانت عقدة المسكينتين أن زوجة الأب قتلت أمهما وأن الأب زوج إحداهما فى ريعان شبابها من عجوز فى الثمانين وأنهما واجها فى صباهما الفقر والضياع.

ما فكرت يوما فى الدفاع عنهما بل كنت ألوم اشتغال المسرح بقصتهما.. أما بعد أن قرأت قصة المركيزة ده برانفيلييه، فقد راجعت نفسى.

***

وفى الكتاب فصل مثير عن (الملك لويس الثالث عشر) وإن المرء ليعجب من أمه الملكة وكأن ذهب القصور غلف قلبها فنضب فيه معين الأمومة حتى غدت تتعمد إساءة معاملة ابنها لتنفرد بالحكم تحت ستار عدم أهليته للحكم مما جعله فى مطلع حياته، يشب طفلا حاقد القلب مغلق النفس كتوما كثير الحذر قليل الكلام ذا شخصية مزدوجة لعل فحصها كما يقول المؤلف (أدخل فى اختصاص علماء النفس منه فى اختصاص المؤرخين).

ويقول: (كانت الملكة إذا سمحت له بحضور جلسة مجلس الوزراء - تأمره أن لا يشترك فى مناقشة، وأن لا يبدى رأيا أو اعتراضا أو استفهاما. فكان يجلس صامتا يسلى نفسه بالتفرس فى نقوش سقف الغرفة وجدرانها أو بالعبث بثنايا ثوبه، أو يرسم وجوها على الورق.

ولكن بينما يظن الوزراء أنه فى شغل عنهم وعما يقولون كان ذهن الشاب منصرفا بكليته إلى موضوع النقاش لا تفوته منه صغيرة ولا كبيرة، حتى إذا انتهت الجلسة تأوه من أعماق صدره، ثم انصرف وهو يجرى أو يقفز كما ينصرف الأطفال عند انتهاء الدرس.

وكان إذا خلا بأمه يفاجئها بأسئلة تنم على إطلاعه على أدق شئون الدولة. أو يبدى ملاحظات وجيهه على تصرف هذا الوزير أو ذاك، فتنبهت الملكة ولا تلبث أن تقطب جبينها وتصرفه بعنف قائلة: (إذهب وابحث عن لعبة تلهو بها ودع عنك هذه الأشياء!) فيخرج الشاب كسير القلب جريح الكرامة ويبحث فعلا عن لعبة يلهو بها بقية النهار.

وهكذا بلغ الملك السادسة عشرة من عمره وهو فى قصره وبلاطه كما لو كان فى سجن بين مراقبيه وسجانيه فلا حرية ولا جاه ولا نفوذ ولا سلطان.

ولكن ابن السادسة عشرة حين كان يخلو إلى الذين يثق بإخلاصهم له كان يعلن عن تصميمه فى وضع حد لهذا البلاء.

يقول المؤلف (وعندئذ كان الطفل الساذج الأبله يتجلى أمام هؤلاء الأصدقاء على حقيقته فإذا هو الشاب الرزين الحكيم البعيد النظر الذى يلم بحقائق الأشياء ويقدر الرجال والأعمال قدرها الحق ويزن الأشياء بميزان العقل ويرتب عليها نتائجها الصحيحة بحكمة الشيوخ المدربين والرجال المحنكين).

ومن الطرائف أو المضحكات المبكيات أن الملك الشاب إمعانا فى السبك وتمثيل دور الغافل ليحول عنه الانظار والمراقبة، كان يجىء بمدافع من صفيح يربط فيها كلابا صغيرة يسوقها فى مماشى الحديقة، أو يأتى بصبية يلبسهم أزياء مسرحية غريبة، ويرقصهم على نغمات الكمان بينما هو يقرع طبلا صغيرا يفسد بدويه تلك النغمات.. ثم لا يقف عند حد تلك المهازل بل يمضى ساعات طويلة من النهار إلى جانب طهاة القصر يحاول أن يطبخ معهم بعض الأطعمة أو إلى جانب البنائين الذى يرممون ركنا متهدما من سور القصر فيساعد بعضهم فى عمله ويناول البعض الآخر المواد والأدوات.

وعندما استرد عرشه كان يذكر هذه المعاناة ضاحكا ويقول لأصحابه:

(لا. لم أكن الطفل الذى توهموه، ولكن ظروفى كانت تقضى أن أظهر فى مظهر الطفل. أما نيتى فكانت مبيتة وخطتى مرسومة. ولم تكن لدى وسيلة أخدمهما بها سوى إحكام أمرى وكتمان سرى وصرف الأنظار عنى وأظننى نجحت فيما أردت خير نجاح).

أما فصل الكردينال ر يشليو فهو فى الحقيقة الفصل الثانى من مسرحية عصر لويس الثالث عشر.

تبا للقصور.. البلاط والدسائس والمؤمرات والخداع.. لا يؤتمن أحد حتى الأشياء تخلت عنها بساطتها ومعناها.. البسمات زائفة.. المشاعر خادعة.. كل شىء مرصود الشك يحكم الكلمة والخطوة والإشارة يحكم الطرقات والردهات والحجرات يخاف الإنسان ما يأكل وما يلبس حتى أن أطباء لويس الرابع عشر لما أعياهم تشخيص الأمراض التى كانت تطرأ عليه، عرفوا فيما بعد من إقتران تاريخ المرض بزيارة معشوقته فى التوقيت نفسه، للسحرة وما كانوا يعطونها من مساحيق تدسها له فى طعامه لإشعال عاطفته نحوها وصرفه عن غريمتها.

جاء فى محاضر التحقيق أن هذه المساحيق كانت تسمى مساحيق الغرام ولتركيبها طرق مختلفة بعضها من الذباب الهندى ودم الخفاش وأجزاء من رءوس حيوانات صغيرة تجفف وتسحق وتخلط بالدم البشرى وتصنع منها فى النهاية عجينة يأكلها الملك!!

تبا للقصور اختلطت الحقيقة فيهابالزيوف وأطلت من كل ركن، الحتوف.

ومن المؤسف حقا.. من المحزن أن الشاعر «موليير» سخر بلاغته فى خدمة الجريمة فألف روايته الشهيرة Amphitryon ومثلها على مسرح القصر وانهال فيها على زوج هذه الخليلة دعابة وسخرية حتى أضحك الساخطين والناقمين وأعادهم إلى صف لويس الرابع عشر وانطلقت الأكف تصفق والحناجر تهتف للشاعر الماجن وهو يقول: (ياليت شعرى هل فى مشاركة الأرباب من عار؟).

ما أبعد الفرق بين سقطة موليير ووقفه «روسو» الذى أمتد أثره فعبر حدود فرنسا مما فصله «ول ديورانت» فى الجزء الرابع من المجلد العاشر من كتابه (قصة الحضارة).

بعد هذه المآسى نأتى إلى فصل (الحياة فى سجن الباستيل).

ومن العجيب أن هذا الفصل، بعيد كل البعد عن (المأساة) بجوها وطبيعتها، على غير المتوقع وغير المعروف عنه.

يقول المؤلف بعد حشد الوقائع:

(وهو تاريخ الباستيل، أو ما يطيب للناس أن يسموه تاريخ الباستيل إلا أسطورة أو خرافة أذاعها.. «لا تود» وهو أفاك كل رأس ماله أنه كان سجين الباستيل، واستثمرها «لانجيه» وهو أديب بائس وجد فى نشر هذه الخرافة موردا للعيش؟ مع أن «لانجيه» هذا، والذى أثرى من التشهير بالباستيل يعترف بأن طاهى السجن كان يحضر له كل يوم قائمة المأكولات فيؤشر بقلمه على كل ما يشتهيه منها فيقدم له. وهل كل ما حل بالباستيل وما حل بالأسرة المالكة فى فرنسا من جرائه إلا بعض ما تنبأ به مسيو شفالييه وكيل سجن الباستيل يوم كتب إلى مدير الشرطة يلفت نظره إلى الإشاعات التى تدور حول السجن، وعما قد يترتب عليها من الخطر فقال«إن هذه الإشاعات وإن كانت كلها كاذبة ستصبح ذات خطر جدى يوما من الأيام وذلك بفضل تهافت الناس عليها وبفضل ما يجده مروجوها فى ترويجها بين الدهماء من الفوائد والأرباح».

عند اندلاع الثورة الفرنسية لم يجد الغوغاء بين جدران الباستيل غير سبعة سجناء وهم: أربعة مزورين، ومعتوه، والإثنان الآخران متهمان بالنصب والفسق ومن الطريف أن هؤلاء السبعة كانوا آسفين على إطلاق سراحهم.

يقول فونك برانتانو: (كان الباستيل قصرا يسجن فيه الملك من يرى وجوب سجنه لسبب أو لآخر. وللمسجونين أن يعيشوا فيه كما يحبون. فلهم أن يختاروا لغرفهم ما يروقهم من الأثاث أو أن يفرشوها بأثاث يأتون به من منازلهم. ولهم من الطعام ما يشتهون، يأمرون فيجاء به أو يشترونه من الخارج لحسابهم الخاص. ولكل منهم أن يستخدم من الخدم من يشاء. وإذا كان السجين غنيا أستطاع أن يعيش فى الباستيل عيشة الأمراء، وإذا كان فقيرا تولى الملك أمره وأجرى عليه من المال ما يكفيه لينفق على نفسه.. وكثيرا ما تجاوزت هذه الأموال حد الكفاية حتى كان المسجونون يقتصدون منها ويدخرون ما يقتصدونه ليعيشوا به بعد مغادرة السجن عيشة الترف والسعة».

ولعل ذلك يفسر قول السجين «ورليه» عندما كان الحراس يدفعونه إلى خارج الأسوار: (أجزل الله ثواب هؤلاء الطغاة الخيرين).

ومع هذا تعددت حوادث الهرب من السجن المترف.

إنه ملل الرتابة ولو كانت قلعة شاتو أو قصر الباستيل.

ومن الطريف تقاليد القبض، فقد كانت تجرى على هذا النسق.

يصدر المرسوم الملكى Lettre de cachet بالقبض على فلان فيحمله ضابط من ضباط الشرطة ويسير به إليه فى وسط خمسة من الجنود.

ويتلوه عليه ثم يمس كتفه بعصا قصيرة بيضاء فينهض الشخص ويتبع الضابط إلى باب البيت حيث تكون عربة فخمة كعربات النبلاء تنتظرهما فيركبانها لتسير بهما إلى الباستيل. وكانت التقاليد والتعليمات تقضى على ضباط الشرطة أن يسلكوا مع المقبوض عليهم خير مسالك المجاملة وحسن المعاملة.

ومن طرائف الباستيل - وهى كثيرة- أن حاكم السجن يستقبل السجين ويدعوه إلى تناول الطعام معه كما يدعو الذين اصطحبوه إلى السجن من الأهل والأصدقاء. وفى هذه الأثناء يكون عمال السجن على قدم وساق فى إعداد الغرفة اللائقة به وفقا لمقامه فى الهيئة الإجتماعية. وإذا حدث أن إدارة السجن لم تكن مستعدة، فإنها تطلب إلى السجين أن يمضى ليلة أو ليلتين حيث يشاء حتى تعد له المكان اللائق به. يؤيد ذلك ما جاء فى مذكرات ميسو ده جونكا نائب الملك فى سجن الباستيل بتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٦٩٥.

ويشتمل سجن الباستيل على ثمانية أبراج يحتوى كل برج منها على أربع أو خمس طبقات من الغرف. أقلها تلك التى كانت فى الطابق الأسفل وهى التى أطلق عليها مؤرخو الباستيل كلمة «الزنازين» Cachots لأنها كانت رطبة مظلمة. لهذا خصصت للمحكوم عليهم بالإعدام.

على أن عقوبة الإقامة بتلك الزنازين لم تكن تتجاوز بضعة أيام..

هذا وقد حرم الملك لويس السادس عشر إستعمالها تحريما باتا.

ومن طرائف نزلاء الباستيل أنهم كانوا يتبارون فى الأناقة.. أقصد أناقة العيش به فتحدثنا مدام ده ستال فى مذكراتها بأنها قد زينت حوائط غرفتها بأستار ثمينة وغطت النوافذ بستائر من المخمل) وتؤكد مدام ده ستال إنهم كانوا يصرحون لبعض نزلاء الباستيل بالخروج منه لقضاء بعض الأعمال فى المدينة على أن يعودوا إليه فى المساء؟ ويقول فونك برانتانو أن الكونت ده بليل عندما غادر السجن حمل معه أمتعته وهى مكتبة حوت ثلاثمائة مجلد، وأدوات مائدة كلها من الفضة المنقوشة، وسرير ذو أستار من الحرير الموشى بالذهب، ومرآتان كبيرتان وبضعة مقاعد كسيت بالجلد وأخرى بالحرير، ولوحات مصورة ومناضد وخزائن ومصابيح من النحاس المفضض، وشمعدانات من الفضة الخالصة).!!

ويقول «بوسى رابوثان» إنه كان يستقبل فى غرفته، زوجته، وأصدقاءه الذى يفدون لزيارته، وأنه كان يقيم الولائم ويدعو إليها بعض رجال البلاط!!

وحدث سنة ١٧٨٨ أن طلب بعض السجناء «بلياردو» ليلعبوا عليه فأجيب طلبهم ونصب لهم البلياردو فى غرفة واسعة.

ومن طرائف المؤلف هذه المرة قوله (ولعل مما يشرف النظام الإستبدادى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر أن الحكومة كانت تعوض المتهم الذى تتضح براءته بشىء من المال عما أصابه من الظلم).

وكانت الحكومة تتولى الإنفاق على الأسر الفقيرة التى يسجن عائلها فى الباستيل مهما كان ذنبه عظيما.

حتى الخدم الذين يصحبون سادتهم إلى الباستيل من باب الوفاء، كانت الحكومة تنفق عليهم وتدفع مرتباتهم طول مدة إقامتهم مع سادتهم فى السجن!.

أقول: ولو

الإستبداد هو الإستبداد حتى ولو استحيا أو تذكر حمرة الخجل.

نعود إلى طرائف الباستيل

يقول رينفيل وهو من الذين أمضوا حياتهم فى التشهير بالباستيل فلا يحمل قوله هنا، بداهة على المصانعة والمداهنة: (.. ودخل السجان ووضع طعام العشاء فألفيت أمامى حساء بالبازلة الخضراء والخس ذات لون جميل وطعم لذيذ. وفى داخلها ربع دجاجة. وفى صحن آخر قطعة من اللحم البقرى عليها هالة من الزبدة والبقدونس المخروط وفى صحن ثالث قطعة كبيرة من الكفتة زينت جوانبها بقطع من العجل ومن الديك والهليون وعيش الغراب. وفى صحن رابع لسان ضأن مطبوخا من بعض الخضر، ثم قطعا من البسكويت الحلو وتفاحتين. وإلى جانب ذلك كله زجاجة من نبيذ البورجونى. ولما أبصرت هذا العشاء الفاخر هالنى الأمر وسألت السجان هل أدفع ثمن ذلك كله؟ أو الملك الذى يدفع فطمأننى وقال لى: (اطلب ما شئت وجلالة الملك يدفع الثمن).

ونسأل من هو «رينفيل»؟ لم يكن إلا جاسوس لا احترام له ولا شأن وهذا مثال آخر:

السجين «دى موربيه» يقول (كانوا يقدمون لى ستة ألوان منها حساء بالجنبرى وحيوانات بحرية أخرى ثم سمك موسى وجزءا من الدجاج المشوى وأنواعا من الخضر والفاكهة والحلوى المطبوخة).

ماذا أقول؟ أرجو ألا يقرأ الطلقاء الشرفاء عندنا الماثلون أمام أبواب الجمعية) فى مصر هذا الكلام حتى لا تجتاح البلد موجه من الإنتحار.. أو إنشاء باستيل من هذا الطراز- شرط- بمصر بعيدا عن طره لينعموا فيه برغد العيش والتخلص من عذاب الطابور.

والآن لم يبق فى حديثنا إلا ملابس المسجونين وهى بدورها، تستحق منا وقفة.

أولا لم يكن المسجونون يلبسون ملابس السجون العادية، بل كانوا (يرتدون معاطف من النوع الذى تعرفه باسم Robe de chambre محشوة بالقطن أو بفراء الأرانب، وثيابا مبطنة بالقطيفة الحريرية. وكانوا يتخيرون الألوان التى تروق أذواقهم، حتى أن سجينة أبدت رغبتها فى الحصول على ثوب من الحرير الأبيض مزين بأزهار خضراء، فذهبت زوجة وكيل الباستيل تجوب باريس باحثة لدى الخائطات عن ثوب تتوافر فيه هذه الأوصاف، ولما لم تجد غير ثوب من حرير

أبيض مخطط بخطوط خضراء أرسلوا إلى السجينة يرجونها أن تقنع به إذ لم يتيسر لهم إيجاد الآخر).

ياعينى على الرضا.

أما المؤلف فيقول:

(ويارحمة الله على أولئك الطغاة المستبدين الذين ما أعجبنا بظلمهم إلا بعد أن قاسينا عدل العصر الذى نعيش فيه!!!)

قارئى العزيز

هل تغيرت فكرتك عن (الباستيل)؟ ألا ترى معى أن الدنيا حظوظ حتى السجون؟ وإن كانت (تغور) ولو صيغت أحجارها من الذهب الخالص.

obeikandl.com

كتاب (الأهرامات المصرية)

ألف هذا الكتاب العالم الأثرى المصرى الدكتور أحمد فخرى كان أستاذ تاريخ مصر الفرعونية والشرق القديم بكلية الآداب جامعة القاهرة. قام بحفائر كثيرة فى مختلف المناطق الأثرية، من أهمها حفائره فى الواحات المصرية وفى مناطق الأهرام، وبخاصة فى منطقة دهشور. وقد دعى كأستاذ زائر فى أمريكا والصين وأوربا وزار أكثر المناطق الأثرية فى بلاد الشرق وبخاصة فى بلاد اليمن.

وقد ألف هذا الكتاب فى الإنجليزية ثم ترجمة إلى العربية لا يملك القارىء إلا أن يحبس أنفاسه لتسرى هذه العبارة فى نفسه وتملأ عليه كيانه.. يقول الدكتور أحمد فخرى:

كثيرا ما عشت بين حين وآخر فى «استراحات» مصلحة الآثار ومنازلها المخصصة لأعمال الحفائر فى مناطق الأهرام، وسكنت منذ عام ١٩٤٤ حتى عام ١٩٥٤ فى منزل بين مقابر أهرام الجيزة على مسافة لا تزيد عن ربع كيلو متر غربى الهرم الأكبر الذى شيده الملك خوفو، ولست أستطيع أن أقول إلا أن جمالها الأخاذ الذى يبعث على التفكير لا يقف عند حد، ففى الليالى الحالكة التى يغيب فيها القمر كنت أحس بأن هذه الكتل الكبيرة السوداء اللون المثلثة الشكل تملأ الفضاء، وتربط ما بين الأرض والسماء، وطالما لاحظت أن زائرى المنطقة يكثرون من الصخب والمرح إذا كانوا فى وضح النهار، أما فى ساعات الليل فإن شاعرية المكان والإحساس بقدم تاريخ تلك الآثار تحيل الزائر المرح إلى معجب هادىء رزين).

ويقول الكتاب إن مجموع ما فى مصر من أهرامات أكثر من سبعين هرما نعرف أماكنها، ويصعب على أى إنسان أن يذكر تقديرا صحيحا لما عساه أن يكون مايزال مدفونا تحت رمال الصحراء.

كثيرا ما رسمت الأهرامات علامات استفهام.

سؤال حائر: كيف استطاعوا رفع الأحجار إلى هذا الارتفاع العظيم؟

والذى خرج منه هذا السؤال المذهول إعجابا هو المؤرخ «بلينى» الذى استكثر بناءها ورأى فيه استعراض ملوك أغنياء.

يقول الدكتور أحمد فخرى طيب الله ثراه.

لعل كل زائر لهذه الآثار الهائلة الحجم قبل «بلينى» وبعده وقف أمامها ورفع ناظريه إليها معجبا وتساءل: كيف بنوها؟

لقد بنى الصعايدة مصر فى القديم والحديث فالأهرامات والمعابد والمسلات التى تمت معرفتها تشير إلى سواعد الرجال السُمر ونص «البرشا» حيث تمثال المرمر لـ «تحوتى حوتب» يشير مؤلفه إلى أذرعهم القوية ويقول مفتخرا (إن كل فرد منهم كانت له قوة ألف رجل).

وقد سمعت شبيها لهذا التعبير فى زيارتى للجامعات الأمريكية سنة ١٩٨٦.. لقد كررها على سمعى أستاذ فى جامعة «بركلى»

وقد تبع بناء الأهرام، إقامة الطرق الصاعدة.

يقول العالم الأثرى الدكتور أحمد فخرى (وتشييد الطرق الصاعدة عمل كبير ومجهود ضخم لا يكاد يقل عن تشييد الهرم نفسه).

وتكلم الكاتب عن (عبقرية التنظيم، وراء هذا العمل كما تكلم عن رعاية العمال وبناء مساكن لهم واعداد الطعام وصرف الثياب بل هناك نص يقول (كنت أنقد عمالى أجورهم قبل أن تغيب الشمس).

ويقول (هذه الأهرامات كانت فى يوم من الأيام تضىء ما حولها بكسائها من الحجر الجيرى الناصع البياض، وكانت المعابد الفخمة كاملة البنيان، وكانت أبهاؤها تردد صدى الأناشيد والصلوات التى يرتلها الكهنة، يحف بهم الوقار وهم يسيرون وئيدا يرفلون فى ملابسهم البيضاء. وكانت القرابين والأزهار تغطى المذابح، وكان عبير البخور يزيد من قدسية الجو المحيط بالمكان).

وقد أشار المؤلف إلى بعض الإحصائيات المتعلقة بالهرم الأكبر ومنها: أن مساحة الهرم الأكبر يمكن أن تتسع لمجلسى البرلمان وكاتدرائية القديس بولس فى انجلترا، ويبقى منها بعد ذلك مكان كبير غير مشغول. وهناك حسبة أخرى منها أن المساحة التى تشغلها قاعدة الهرم تكفى لأن تشيد فيها كاتدرائيات فلورنسا وميلانو والقديس بطرس فى روما، وكذلك كاتدرائية القديس بولس ودير وستمنسترفى لندن.

ومن الطريف قوله: (ولو أننا قطعنا جميع أحجار الهرم إلى أحجار صغيرة -بعد الشر- حجم كل منها قدم مربعة واحدة، ووضعنا هذه الأحجار كل منها إلى جانب الآخر لأصبح طولها ثلثي طول الكرة الأرضية عند خط الإستواء.

أخذني الكتاب من نفسي ففاتني في البداية أن أقول إنه يتكون من اثني عشر فصلا كبيرا. تناول فيها بناء الهرم وإدارته- وهرم سقارة المدرج- خلفاء زوسر على العرش- أهرام سننفرو بدهشور- هرم الجيزة الأكبر- أبناء خوفو واحفاده- أبو الهول- أبناء الشمس- البعث- جنوب الوادي.

وبالكتاب ملحق عن أهرام الملوك وأطول قواعدها

وقد شمل: العصر العتيق- الدولة القديمة- عصر الفترة الأولى- الدولة الوسطى- الدولة الحديثة- العصر المتأخر.

***

أنول: إن الهندسة المجردة Geometry قياس الأرض ولكن الهندسة المصرية، أكبر تجربة لتحقيق القيمة، حين ترتفع إلى صفاء النفس.

الهندسة المصرية عليها غلالة شفافة من مشاعر القدسية والرفه الذي هو أناقه حضارية.. عمارتها تتحول إلى بستان.

إن عاصمتها بمعناها الكبير الجامع أي (منف + عين شمس + الفسطاط + القطائع + القاهرة) أحظى عواصم العالم معماريا بأهراماتها ومعابدها وكنائسها ومساجدها وفنونها التشكيلية.

ليس الهرم بناء فحسب إنه رمز مصر وحضارتها بفنونها وعلومها ومعتقداتها في البعث والخلود. الخلود الذي يقف الهرم شاهدا عليه بشموخه الثابت، وثباته الشامخ حين يتغير في العالم كله: الزمان والمكان والناس.

فجر الضمير

هذا الكتاب رحلة فى ضمير مصر منذ فجر الزمان.

لم يؤلفه مصرى ولكن ألفه عالم أمريكى اختار أن يكون صادقا مع نفسه فلم تحجب أى اعتبارات، شهادته.

لقد رأى حضارة مصر أكبر كثيرا من أى حضارة فى التاريخ. إنها أم الحضارات جميعا.. ولعل هذا يفسر قولنا: مصر أم الدنيا.

ولم يكن وحده فى هذا الإنصاف فإن مواطنه العالم الأمريكى «امرسون» قال مما سجلته الصفحة الأولى فى الكتاب: (نحن نظن أن شمس حضارتنا قد قاربت أن تبلغ غاية إرتفاعها، والحقيقة أننا مازلنا منها إلى الآن فى أوان أذان الديك ووقت مطلع نجم الصباح ففى مجتمعنا الهمجى لا يزال نفوذ الأخلاق فى طفولته).

***

كتاب «فجر الضمير» ألفه جيمس هنرى برستد وترجمه الدكتور سليم حسن وراجعه الأستاذ عمر الاسكندرى والأستاذ على أدهم.

والمؤلف أستاذ تاريخ الشرق القديم ولكنه سنة ١٩٣٤ جمع مليون جنيه للإنفاق على دراسة الحضارات القديمة فانتهى به البحث والدرس إلى أن مصر أصل مدنيات العالم، ومنبت نشوء الضمير.. والبيئة الأولى التى نمت فيها الأخلاق. وبهذا حسم الموضوع علميا. الحديث عن علوم مصر وفنونها يملأ الأسماع والآفاق.. لهذا.

سأقتصر فى تقديم هذا الكتاب على الدين.. مع إيمانى بأنه دين، كل عكوف على عمل عظيم.. وما أكثر الأعمال العظيمة التى تبلغ حد الإعجاز، التى قدمتها مصر لحضارة الإنسان ولكن مصر من كثرة معجزاتها غدت المعجزة فيها بلا علامة.

أترك بعض الوقت الحديث عن علوم مصر وفنونها وهى بما أبدعت وأمتعت وأترعت، غدت علومها وفنونها صلوات لله فالعمل الصالح يرفعه.

سأقتصر فى تقديم هذا الكتاب على الدين.
على سجايا القلب.
وعطايا الروح
لإيمانى بأن الدين عماد الحضارة بما هو ضمير

وقد آمنت مصر ووحدت وقالت بـ «معات» ومعناها العدل والحق والخير والصدق أى الضمير.

أقتصر على الدين، لواجبى فى التعريف بمصر الدين حتى قبل نزول الأديان.. وكثيرون حولنا لا يعرفون هذا بل يقولون العكس، لنقص فى المعرفة والمثل يقول (من جهل شيئا، عاداه) أو رد معكوف على حضارتها الشامخة، أو هرب ملفوف من المقارنة..

تغطية أو تعمية..

ومن الغريب أننا أنفسنا بيننا من ينهج هذا النهج لونا من القول بالإسلام وتفرده.. ونسوا أن مصر هى القاعدة الأساسية والحضارية للأديان جميعا بما، فيها، منها.. فقد وصلت مصر بالفطرة السليمة وبالدفع الحضارى معا إلى قيم ومفاهيم جاءت الأديان فعززتها أو على الأقل لم تنكرها فكان لقاء.. وكان التقاء.. وكان أخذ وعطاء بين مصر والأديان حين حارب الأديان أهلها الأقربون وأوطانها الأصلية.

لقد أصهر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى مصر.

وأنجب منها، إبراهيم

ودعا لها (مصر كنانة الله فى أرضه من أرادها بسوء قصمه الله) ولم تتخل عن مصر بركة هذا الدعاء الذى تفتح له السماء أوسع أبوابها.

سأقتصر فى تقديم هذا الكتاب على ما جاء فى باب الدين والقيم الأخلاقية ليعرف من لم يكن يعرف مصر.

ولأن الفضل ما شهد، به، الغرباء.

***

يقول جيمس هنرى برستد:

(لقد حفظت فى طفولتى مثل إخوانى من الصبية «الوصايا العشر»... وإنى أذكر أننى كلما كذبت، كنت أجد لنفسى سلوة فى أنه لا توجد وصية تقول: «يجب عليك ألا تكذب» وإن الوصايا العشر لا تحرم الكذب إلا فى شهادة الزور فقط.. أى عندما يؤدى الإنسان شهادة أمام المحاكم يمكن أن تضر بجاره. ولما اشتد ساعدى بدأت أشعر فى نفسى بشىء من القلق وأخذت أحس بأن قانون الأخلاق الذى لا يحرم الكذب هو قانون ناقص، وبقيت هذه الفكرة تجول بخلدى زمنا طويلا قبل أن أضع لنفسى السؤال الهام التالى: كيف ظهر فى نفسى الشعور بهذا النقص؟ ومن أين حصلت بنفسى على المقياس الخلقى الذى كشفت به عن هذا النقص فى الوصايا العشر؟ ولقد كان يوما أسود على احترامى الموروث.

ثم كشفت وأنا مستشرق مبتدىء أن المصريين كان لهم مقياس خلقى أسمى بكثير من الوصايا العشر وأن هذا المقياس ظهر قبل أن تكتب تلك الوصايا بألف سنة).

ثم يقول جيمس هنرى برستد إن أعظم كشف جاوز حد المألوف هو أننا عرفنا أن حكمة «أمينموبى» التى حفظت لنا فى ورقة مصرية بالمتحف البريطانى قد ترجمت إلى العبرية فى الأزمان الغابرة وأنه بذيوعها فى فلسطين صارت مصدرا إستقى منه جزء بأكمله من كتاب «الأمثال» فى التوراه ص ١٢.

ويعود ليؤكد هذا فى الصفحة التالية (لقد أصبح الآن من الواضح الجلى أن التقدم الاجتماعى والخلق الناضج الذى أحرزه البشر فى وادى النيل الذى يعد أقدم من التقدم العبرى بثلاثة آلاف سنة، قد ساهم مساهمة فعلية فى تكوين الأدب العبرى الذى نسميه نحن «التوراة».

إن الدلائل تؤيد أن هؤلاء المصريين الذين عاشوا فى عصر ما قبل التاريخ المدفونين فى أقدم الجبانات- هم وأجدادهم كانوا، أقدم مجتمع عظيم على الأرض استطاع أن يضمن لنفسه غذاء ثابتا باستئناس الموارد البرية من نبات وحيوان، على حين أن تغلبهم على المعادن فيما بعد وتقدمهم فى اختراع أقدم نظام كتابى، قد جعل فى أيديهم السيطرة على طريق التقدم الطويل نحو الحضارة.

ويستعين بالتحديد فيقول (فى القرون التى تقع بين ٥٠٠٠، ٣٥٠٠ ق. م قامت أول دولة متحضرة كبيرة فى وقت كانت فيه أوربا ومعظم غربى آسيا لا تزال مسكونة بجماعات مشتتة من صيادى العصر الحجرى.

إنها مصر

مرحلة فريدة.

ومن المهم أن نؤكد كلمة «فريدة» التى استعملناها فى العبارة السابقة، لأنه لم يكن فى هذا العصر البعيد نمو مطرد متعاقب فى أى بقعة أخرى من بقاع العالم القديم.. كانت مصر من الوجهة الخلقية والثقافية فى مرتبة تفوق. بكثير ما كان فى بابل حيث كانت الشحناء قائمة بين بعض المدن وبعضها الآخر.

ويسجل برستد الأمريكى لمصر أنها خلقت الحضارة على غير مثال حين تسلمت أمريكا الفن والعمارة والصناعات والتجارة والتقاليد الحكومية والإجتماعية بطريق الوراثة عن أجدادهم الأوربيين، الذين أخذوا بدورهم من اليونانيين الذين أخذوا من مصر.

لا يزال برستد مبهورا:

(إن الذى يعرف قصة تحول صيادى عصر ما قبل التاريخ فى غابات وادى النيل إلى ملوك ورجال سياسة وعمارة ومهندسين وصناع وحكماء وأنبياء إجتماعيين فى جماعة منظمة عظيمة مشيدين تلك العجائب على ضفاف النيل فى وقت كانت أوروبا لاتزال تعيش فى همجية العصر الحجرى ولم يكن فيها مدينة الماضى.

من يعرف كل هذا، يعرف قصة ظهور أول مدينة على وجه الكرة. فالمدينة فى أعلى معانيها قد ولدت فى الركن الجنوبى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط).

إنهامصر.

الدين ضمير

والضمير هو القانون الأعظم.

لأن سلطة الحساب داخل الإنسان ولا مهرب له من جلده.

أما القانون الوضعى فهو فى الواقع قانون تنظيمى.

ولهذا يتفاوت فى الرقى

وهنا يكبر برستد مصر ويجل مصر.

لأن قانون حمورابى فى بابل كان يقضى فى العدالة حسب المركز الإجتماعى للمدعى أو المذنب.

أما الإنعدام التام للفوارق الإجتماعية أمام القانون الذى هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية فلم يكن معروفا فى بابل.

وكان نتيجة ذلك أن المبادىء الأخلاقية فى بابل لم تسهم إلا بالنزر اليسير إن لم تكن لم تسهم بشىء مطلقا فى الإرث الأخلاقى الذى ورثه العالم الغربى.

أقول فرق كبير بين مصر التى تخطت سريعا عصر الصيد وعرفت الزراعة تحضيرا للأرض وزراعة للنفس.. زراعة للأثر والحجر.. زراعة للمعنى فى الفكر، وزراعة للحب فى القلب.. وزراعة للرحمة تلف الإنسان والحيوان والنبات والحياة فى وحدة.

ومن هنا جمعت مصر إلى بساطة الثرى السرى، زهد الغنى، وقوة الأنس بالحق، وطمأنينة النفس على الطريق، وثقة ليس من الغرور ولكن من الإيمان بنور النور.

هذا حين يصف برستد، الحضارة البابلية بأنها (كانت تسودها فى جميع أدوارها روح الإقتصاد التجارى والكد فى الحاجيات الآلية مما حرم التطور الإجتماعى البابلى حتى من الأسس الأولية للتدرج نحو مراعاة الغير، والعمل على نفعهم، فكان الأساس الخلقى اللازم للعدالة بين الجميع معدوما).

خطب الدكتور «هنرى سلوان كفن» خطبة دينية فى ٢/ ١٠/ ١٩٣٢ أوردتها جريدة نيويورك تايمز الصادرة فى ٣/ ١٠/ ١٩٣٢ جاء فيها (إن عصرنا- سنة ١٩٣٢- أشرقت فيه شمس العدالة بالشفاء من جناحيها).

وهنا يعلق «برستد».

(هذه الإستعارة مأخوذة من الأدب العبرانى ولكن العبرانيين إستعاروها من مصر حيث أشرقت «شمس العدالة» قبل أن تشرق على فلسطين بأكثر من ألفى سنة.

وإذا قدر لهذه الشمس أن تشرق ثانية على جيلنا الحالى فإنها ستكون القمة لنهج الرقى البشرى الذى ظل يرقى بحياة الإنسان منذ آلاف السنين قبل عصر «الأنبياء» المعترف به منذ زمن بعيد عند رجال اللاهوت».

يقول برستد عن مصر التى يسميها «جزيرة المنعمين»:

تدل المصادر التى وصلت إلينا على أن الوازع الخلقى قد شعر به المصريون الأقدمون قبل أن يوجد الشعور به فى أى صقع آخر. فإن أقدم بحث عرف عن «الحق والباطل» فى تاريخ الإنسان عثر عليه فى ثنايا مسرحية «منف» ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الرابع ق. م وهى من تأليف طائفة مفكرة من الكهنة فى المعابد المصرية. /

وحين تداعى النظام الخلقى بعد عصر بناة الأهرام، هب نفر من حكماء المصريين ينادون بالجهاد المقدس لإنقاذ العدالة الإجتماعية.

يقول «برستد»: من المدهش حقا أن كان المثل الأعلى لحكماء الإجتماع هؤلاء آخر شكل رسالة التبشير بقدوم المخلص التى جاءت فيما بعد، وهى الإعتقاد بمجيء حاكم عادل يكون فاتحة عصر ذهبى لإقامة العدالة بين جميع بنى البشر. وقد ورث عنهم العبرانيون هذا الإعتقاد.

أقول والمسيحيون أيضا.. فهم يقولون بالمخلص أقصد مسيحى مصر فى امتداد لمصر الفرعونية.

إن مسرحية «منف» التى كتبتها مصر فى منتصف الألف الرابع، قبل الميلاد قالت بوجود يثيب الطيب ويعاقب المخطىء والمسىء.

وقالت مصر بالحياة الآخرة فكان هذا وازعا قويا للخلق القويم. ثم اتسع أفق التفكير الدينى كما يقول «برستيد» حتى وصل بعد عام ١٤٠٠ ق.م إلى قمته بظهور أول عقيدة للتوحد عرفها التاريخ.

ويصف «برستد» متون الأهرام بأنها أقدم مصدر وصل إلينا عن التفكير البشرى عن الأقدمين.. والمتون ومسرحية منف هما أقدم مدى يمكن لنا الآن إدراكه عن تاريخ الإنسان العقلى.

يقول «برستد» (إن هذا القدر العظيم من الوثائق الباقية لنا عن العالم القديم ليس له مثيل فى أى مكان آخر من العالم).

ومن أرق ما جاء فى متون الأهرام وصف الحياة المصرية الشعبية منذ خمسة آلاف سنة.. وهذه لمحات عاجلة منها كما يقول برستد:

الخطاطيف تشقشق على الجدار، والراعى يعبر الترعة خائضا فى الماء حتى الحزام حاملا عبر الماء رضيع قطيعه الضعيف، والأم تدلل رضيعها عند الغسق، ويشاهد الصقر عند الغروب مخترقا السماء. وتشاهد البطة البرية مخلصة قدميها فارة من يد الصياد الذى فشل فى اقتناصها فى المستنقع، وعابر الماء واقف عند الزورق ولا مال معه يقدمه للنوتى مقابل مقعد فى الزورق على أن يعمل مقابل نقله فى نزح الماء من الزورق المثقوب، ويشاهد الشريف جالسا عند حافة بركته فى حديقته تحت ظلال الخميلة المصنوعة من سيقان الغاب.

أما أشراف المصريين وأغنياؤهم فقد سجلت لهم سقارة صورة خلابة بأزهى الألوان الباقية إلى الآن.

وحين صوروا الحياة لم يذكر قط فى متون الأهرام كلمة الموت إلا فى صيغة النفى أو مستعملة للعدو. حين تؤكد متون الأهرام تأكيدا قاطعا أن المتوفى حى يرزق «الملك تيتى لم يمت موتا بل جاء معظما فى الأفق».

إنك تعيش.. إنك تعيش.. إرفع نفسك أيها الملك بيبى السامى بين النجوم التى لا تفنى (وهى النجوم الثوابت).

ومن هنا كان الفراعنة يقولون: إن نجوم السماء اللامعة فى الليل هى أرواح الأحبة تطل عليهم من عَلِ.

شفاف رفاف خيال مصر كروحها.

وبعد هذا يسمون الآن، متون الأهرام: كتاب الموتى!!! أين تكون الحياة والاحساس بها بهذه الرهافة كلها.. بهذا العمق كله دلونى.. قولوا لى..

يقول «برستد»:

(من بين أقدم القطع الأدبية فى هذه المتون، الأناشيد الدينية، وهى عبارة عن تركيب شعرى قديم بهيئة أبيات من الشعر الموزون المقفى ظاهر فيه التوازن بين كلماته ومعانيه. وقد نقل العبرانيون هذا التركيب الشعرى إلى أدبهم بعد ذلك بألفى سنة. وهو التركيب المعروف لنا فى «المزامير» باسم «توازن الأعضاء».

يقول «برستد»:

(يرجع إستعمال ذلك التركيب فى متون الأهرام إلى الألف الرابعة قبل الميلاد وعلى ذلك يعد وجوده فى هذه المتون أقدم من وجوده فى آية بقعة أخرى فى العالم بمراحل بعيدة. والواقع أنه أقدم صورة أدبية بين جميع أنواع الأدب المعروف لدينا) ص ٨٨.

ويقول «برستد»:

إن ما ورد فى متون الأهرام عن معالجة (تحوت) لعين حورس، ظهر مرة أخرى فى كتاب العهد الجديد عند ذكر الحادث الذى يصور لنا المسيح مستعملا تلك الطريقة نفسها لإبراء الأعمى.

أقول ثم الصور النقية الطاهرة التى سجلتها متون الأهرام لحورس حين فقد عينه فى الحرب بينه وبين عدو أبيه (سيت) ثم بحثه الدائب عن أبيه اوزوريس عابرا البحر فى سبيل البحث عنه حتى وجده وقدم له عينه المصابة قائلا له: فداك عينى.

ومن هنا شاع هذا التعبير فى اللغة المصرية وقولنا للعزيز حين يطلب شيئا: (من عينى).

وصارت (عين حور) مقدسة فى التقاليد والشعائر المصرية القديمة حتى صارت رمزا لكل تضحية:

يقول برستد:

(ولهذا صنعت آلاف الأعين من الأحجار النفيسة الغالية. ولقد ملئت بتلك الأعين متاحفنا أرجو أن تكون موجودة لاتزال، هذا فضلا عما كان يحضره آلاف السياح معهم إلى بلادنا.. رموزا لتلك القصة التى تحدثنا عن «حور» وبره بوالده.

وقد بلغ بر الأباء فى مصر القديمة أن أحد الأبناء كتب فى نقوش القبر الذى أعده لوالده تكريما له بعد الحياة (والآن قد عملت على أن أدفن فى نفس القبر مع «زاو» (يعنى والده) لكى أكون معه فى مكان واحد على أنى لم أفعل ذلك لأنى لست فى مكانة تؤهلنى لبناء قبر ثان، بل فعلته حتى أتمكن من رؤية «زاو» هنا كل يوم ولكى أكون معه فى المكان عينه).

يقول برستد:

(إن العلاقات الأسرية المنطوية على الود مما سجلته نقوش مقابر منف، تعد كشفا جديدا ذا أهمية أساسية فى تاريخ الأخلاق) ص ١٣٤.

ويقول: إن حكم بتاح حتب، تمدنا بأقدم نصوص موجودة فى أدب العالم كله للتعبير عن السلوك المستقيم.

ومن حكم بتاح حتب قوله لابنه ناصحا: (لا تكونن متكبرا بسبب معرفتك، فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها وليس هناك عالم بلغ فى فنه حد الكمال، وإن الكلام الحسن أكثر اختفاء من الحجر الأخضر الكريم ومع ذلك فإنه يوجد مع الإماء اللائى يعملن فى إدارة حجر الطاحون).

وقد سجل برستد فى كتابه هذه الإبتهالة التى يضمها الآن المتحف البريطانى والتى تركها لنا إثنان من رجال العمارة فى عهد امنحتب الثالث، هما «سوتى» و «حور».

إنك صانع مصور لنفسك بنفسك

مصور دون أن تصور

منقطع القرين فى صفاته

مرشد الملايين إلى السبل

وبدءا من ص ٣٠٢ يبدأ «برستد» فى مقارنة تسابيح «أخناتون» العظيم بالمزامير

اخناتون	المزمور ١٠٤ - ٢٤
ما أكثر تعدد أعمالك	ما أعظم أعمالك يارب
إنها علي الناس خافية	كلها بحكمة صنعت
ياأيها الإله الأحد	ملآنة الأرض من غناك
الذي لا يوجد بجانبه إله آخر	لقد خلقت الأرض حسب رغبتك

هذا مثال واحد فقط

يصف «برستد» هذا التطور بأنه (أقدم تطور من نوعه فى تاريخ الشرق القديم. وبالنسبة لهذا الموضوع بالذات، فى تاريخ البشرية جميعا). ص ٣٣٧.

أقول: هل أجمل من هذه الترنيمة:

إنى أنظم الأناشيد باسمه

وإنى أقدم له الحمد
بقدر علو السماء
وعرض الأرض
وأتحدث عن قوته
إلى الذى يسير فى النهر منحدرا
والذى يسير فى النهر صاعدا
أنت الإله الأحد لا إله غيرك
الذى يسمع دعاء من يدعوه
والذى يجرى النيل لأجل من هو بينهم
والهادى لجميع الأنام
والذى يمنح النفس ما فى البيضة
والذى يجعل البشر والطيور تعيش
والذى يرزق الفيران بحاجاتها فى أحجارها
وكذلك الديدان والحشرات

وأخيرا يقارن «برستد» بين الحكيم المصرى «امينموبى» وسفر الأمثال.

امنيموبى المصرى	سفر الأمثال
أمل أذنيك لتسمع أقوالى	١٧ - أمل اذنك واسمع كلام الحكماء
واعكف قلبك على فهمها	ووجه قلبك إلى معرفتى
لأنه شىء مفيد إذا وضعتها	لأنه حسن إن حفظتها
فى قلبك	فى جوفك
ولكن الويل لمن يتعداها	إن ثبتت جميعا على شفتيك
	سفر الأمثال (٢٢، ١٧- ١٨)
لا تزحزحن علامات حدود الحقول	لا تنقل التخم القديم
ولا تكونن شرها من أجل ذراع أرض ولا تتعدين على حدود أرملة	ولا تدخل حقول الأيتام
(امنيومبى ٧، ١٢- ١٥)	سفر الأمثال ٢٣ : ١٠

obeikandl.com

مع الفارق مصر تؤمن وتعمل بهذه القيم السامية.

بقيت لى الصفحة الأولى فى الكتاب وكنت قد أجلتها.

تقول أعنى تسجل هذه الصفحة لمصر، هذه الروائع!

(يعترف بفضل الرجل الذى يتخذ العدالة نبراسا له، فينهج نهجا) من أقوال الوزير «بتاح حتب» فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد.

(إن فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله) من ثور الرجل الظالم) نصيحة من ملك مصر إلى ابنه فى القرن الثالث والعشرين.

(إن العدالة خالدة الذكرى فهى تنزل مع من يقيمها إلى القبر ولكن اسمه لا يمحى من الأرض بل يذكر على مر السنين بسبب العدل) من أقوال الفلاح الفصيح فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد.

ومن ابتهالات مصر

(أنت أيها الينبوع العذب الذى يروى الظمأ فى الصحراء.. إنه لينبوع موصد لمن يتكلم ومفتوح لمن يتذرع بالصمت، فإنه حينما يأتى الصامت، تأمل! فإنه هنالك يجد الينبوع).

***

أول كتاب أقدم صفحته الأولى فى ختام العرض.

لأنها بما حوت، جديرة، بأن تكون الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة.

إنها أول اللحن وإنها القرار

كما يكون الفجر، ختام الليل ومطلع النهار

إنها فجر الضمير.

كتاب (التحليل البيولوچى للتاريخ)

ألف هذا الكتاب الطبيب الأديب الدكتور محمد كامل حسين.

* وفيه تناول: قوانين التاريخ- الزمن التاريخى- التحليل التاريخى- تاريخ الفنون (تاريخ الشعر وتاريخ التصوير).

* تاريخ الأديان- التاريخ السياسى (عظماء الرجال- التاريخ السياسى القومى- التاريخ السياسى الدولى- الثورات والحروب).

* تاريخ الحياة العقلية.

* سياسة المستقبل: (الديمقراطية والشيوعية- الفردية والاشتراكية- السلام العالمى الأمم الصغيرة).

*بيولوچيا التاريخ مع رسوم بيانية.

ويعرف الدكتور محمد كامل حسين، التاريخ، بأنه أثر الزمن فى كائن حى بعينه هو الإنسان.

ولما كان أكثر علماء التاريخ يرون أن تحقيق الوقائع التاريخية، تقصى أسبابها، وترتيبها ترتيبا تؤدى فيه المقدمات إلى نتائجها، و تتابع فيه الأسباب والمسببات تتابعا منطقيا، هو غاية التاريخ.

وهنا يسجل الدكتور محمد كامل حسين أن هذا الرأى يضع من قدر الدراسات التاريخية، إذ يجعلها بحوثا وصفية بحتة لا ترتفع إلى مقام العلوم. والحقائق وحدها بالغة ما بلغت من الدقة، لا تعدو أن تكون المادة الأولى لأى علم من العلوم.. ولا تصبح علما حتى نكشف عن القوانين التى تنظم علاقة هذه الحقائق بعضها ببعض.. كذلك كانت الكيمياء مثلا، فإن الدقة فى وصف المواد، وإن تكن أمرا ضروريا، لم تخلق علم الكيمياء، وإنما أصبحت الكيمياء علما من أثبت العلوم حين كشفنا كنه القوانين التى تحدد تركيب هذه المواد.

والبحث فى القوانين التى تحدد نظام الأحداث التاريخية يدعو حتما إلى البحث فى الزمن من حيث أثره فى الكائنات الحية عامة والإنسان خاصة، ويدعو إلى البحث فى الإنسان من حيث تأثره

obeikandl.com

بالزمن. ولا يقوم علم التاريخ إلا إذا عرفت قوانين هذا التأثير وهذا التأثر.. ذلك أن مطلق الزمن عامل قوى فى تكييف الأحداث التاريخية وتحديد أسلوبها ونظامها ... بهذه البحوث وحدها يمكن أن نفهم الحياة التاريخية ونتبين ما يكون فيها من اتساق.

وفى هذا الكتاب تفسير نفسى للتاريخ وتفسير عقلى يسلمان القارىء إلى وجوب أن يكون للتاريخ مقام كبير بين ألوان المعرفة. فليس هو قصصا ممتعا تراد به التسلية.. وليس هو عظة للناس تهديهم طريق الصواب.. فقد ثبت أن الإنسان لا تغير طباعه عظة تاريخية مهما يكن الدرس قاسيا والموعظة واضحة.. وإنما هو بحث يراد منه فهم الحياة الإنسانية، وهو الوسيلة الوحيدة لهذا الفهم.

قد يقول الذين لا يؤمنون بالتاريخ إنه لا يمكن أن يكون علما، وذلك لاستحالة التحقق من صحة وقائعه تفصيلا..

ولكن الدكتور محمد كامل حسين يرد بأن ليس على التاريخ أن يصدق فى تفصيلاته.. وهو صادق من غير شك فى عمومياته.. وقضاياه الكبرى هى أصدق ما فيه.

وفى فصل (تاريخ الأديان) يقول إن الإيمان غريزة من أقوى الغرائز الإنسانية.. وهو ألزم لقيام الحياة الإنسانية من الهواء للحياة الجسمية وهو يرى أن الإيمان من حيث هو غريزة لا تاريخ له. بل هو مثل الحب سيظل قائما فى النفس الإنسانية مادام الإنسان إنسانا.. ولكن لابد له من وسيلة للتعبير عنه وإبرازه فى الحياة الخارجية.. ولابد من تنظيم هذا التعبير تنظيما تقبله النفوس، كما تحتاج الغرائز الأخرى إلى الفنون لإبرازها إبرازا منظما جميلا.. والدين هو هذه الوسيلة للتعبير عن الإيمان تعبيرا منظما.. وموقف الدين من الإيمان هو موقف الفنون من الجمال.

الدين سوى بين الناس إجتماعيا حين قال الله جل شأنه: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

والعلم حاول أن يسوى بينهم حين توصل أن (يمد الناس بأجهزة تزيد من قواهم الطبيعية زيادة تسوى بين الناس جميعا. فأحد الناس بصرا يستوى وأضعفهم إزاء ما يستطيعون أن يروه بالتلسكوب أو الميكروسكوب).

وللدكتور محمد كامل حسين رأى خاص فى عظماء الرجال فهو يرجع «العظمة» إلى اجتماع ظروف كثيرة قد لا تجتمع إلا نادرا. لهذا كان عددهم قليلا لا لندرة فى الصفات التى

أهلتهم لهذا النبوغ، ولكن لصعوبة اجتماع هذه الظروف كلها فى وقت واحد. فيجب قبل كل شىء أن يكون العصر عصرا يسمح بتفوق الأفراد، ويكون ذلك فى العصور الأولى لتاريخ الأمة أو فى مبدأ فترة من الفترات الكبرى فى ذلك التاريخ.. ويجب أن تكون صفات الرجل فى دور الصعود فى تاريخ الأمة.. ويجب أن يكون تاريخ الأمة فى صعود.. ويجب أن يكون مجاورها فى دور الجزر فى تاريخهم.

عند ذلك يتم نجاح الرجل ويكون مثلا رائعا من أمثلة العظمة التاريخية.

ويقول الدكتور محمد كامل حسين بنظرية المد والجزر فى التاريخ وأنها أكبر وأفعل من الهزيمة والنصر.. فإنجلترا لم يستطع نصرها فى حربين عالميتين أن يقف فى سبيل الجزر الظاهر فى تاريخها بل إن النصر كان سببا فى ضياع أكثر إمتيازاتها.

أقول وهو درس لأمم أخرى تستعز بالقوة ممثلة فى السلاح أو المال أو كليهما..

يقول الدكتور محمد كامل حسين: (قوة القتل أو التهديد به ظلت أقوى عامل فى التفوق الدولى حتى اليوم.. ثم ظهرت قوة الترغيب فى ما يستطيع أن يجلبه المال من امتيازات، ولم يكن لهذا شأن فى حياة الأفراد... ولم يكن الغنى قوة دولية حتى جاءت الولايات المتحدة وهى تحاول أن تخلق نوعا جديدا من التفوق.. على أنه لما كان التفوق فى الميدان الدولى سائرا إلى الزوال- من أى نوع كان- من أى نوع يكون فإن هذه القوة الجديدة قوة المال، لن تكون وسيلة فعالة لامتياز أمة على أخرى، وسيكون عهد هذا التفوق قصيرا.

أقول لا المال ولا النصر يصنع البقاء الأمثل والأسمى والأطول والأخلد. قوة الآلة والمال إلى زوال حين تبقى حضارة الإنسانيات.

وقف الكتاب وقفة طويلة عند الحروب ومفجريها. إن القانون البيلوجى الذى يقول بتنازع البقاء ليس فى الواقع، صوابا، وإذا كان حقيقيا فى حياة الحيوان فليس هذا برهانا على أنه حقيقى فى حياة الإنسان. والحروب خطأ فى النظام الإجتماعى.

والأسباب عند الدكتور محمد كامل حسين.. الأسباب التى ساعدت على قيام الحروب قديما أن الجماهير كانت تخضع لزعمائها خضوعا أعمى فكانوا يساقون إلى الحرب ولا رأى لهم فيها.. وكان هؤلاء الزعماء يؤكدون لأممهم أنهم يحاربون دفاعا عن شرفهم وحريتهم، وحرية

أبنائهم وسعادتهم.. وأن قضيتهم عادلة وأنهم هم المعتدى عليهم.. وأنهم يبذلون أرواحهم فى سبيل المجد والشرف والعزة.. وهى قضايا باطلة كلها، لا أساس لها إلا خداع الزعماء للجماهير.. وكان الزعماء يسوغون هذا الخداع بدعواهم أنهم أعلم بما هو خير للأمة من الأمة نفسها. ولاشك أن انتشار التعليم جعل الجماهير أقل قبولا لهذا الخداع وأكثر تقديرا للأمور.. وسيأتى يوم قريب لا تخضع فيه الجيوش لقادتها.. وقد بدأت الجماهير تتساءل فيم تعرضها للموت وإقدامها على الحروب.. وأصبح من الصعب على الزعماء أن يسوقوا الناس إلى الموت دون أن يكون لهؤلاء رأى فى ماهم قادمون عليه.

وهنا يؤكد أن التاريخ الحديث سينتهى إلى زوال الامتيازات من أى نوع تكون.. فإذا لم تتنازل الدول صاحبة الامتيازات عنها طوعا، فستتنازل كرها. والدول الكبرى تظن أنها تبقى على امتيازاتها بالنصر فى الحرب. ولم يخطىء الإنسان -على كثرة أخطائه- خطأ أكبر من هذا وأدعى إلى الخراب. والسياسيون المحترفون لم يقدروا بعد أن النصر فى الحرب لا يمنع زوال هذه الامتيازات، وأنه إنما يعجل بالقضاء عليها.

ويناقش الدكتور محمد كامل حسين احتمال قيام الحرب العالمية الثالثة -وأحسبها قامت بالفعل- وهنا نقف عند تقييمه للنتيجة التى نرجو أن تحققها الأيام:

يقول: (ليس صحيحا أن الحرب الثالثة ستدمر العالم. بل هى ستدمر الدول الكبرى وتقضى على امتيازاتها كلها، سواء فى ذلك الغالب والمغلوب.. ويبقى بعد ذلك قوم ينشئون عالما خيرا مما نحن فيه).

***

ومن أمتع الفصول فى هذا الكتاب فصل: «تاريخ الحياة العقلية» فهى عنده أبسط تحليلا وأظهر نظاما واتساقا من تاريخ الحياة الفنية أو السياسية أو الاجتماعية. فهى حياة منظمة تنظيما واضحا كل الوضوح وهى دائمة النمو ولم تفقد الإنسانية فى أى عهد من العهود ما علمته من قبل. وقد يقل الابتكار، وقد يقف التقدم العلمى ولكن العلم لا يندثر.

وقد ثبت أن العقل البشرى عند الناس جميعا كما يقول، قابل للحياة العلمية، وأن العلم -مهما يكن مصدره- لا يلبث إلا قليلا ثم تستوعبه جميع الأمم. هذان العاملان- النمو المطرد

للعلوم، وقدرتها على بلوغ عقول الناس كافة- كفيلان بسيادة العلوم على الحياة كلها فى المستقبل القريب.

والطبيب الأديب العالـم معا له نظرة ونظرية طريفتان. فـعنده أن تقدم العلوم يؤدى إلى زيادة كل قوة فى الإنـسان زيادة تمحو الفـروق بين الأفراد والأمم من حـيث قدرتهم على التـغلب على غيرهم. فأسرع الناس عـدوا أصبح بطيئا جدا بالنسبة لطائرة يقودها من لا يؤهله جـسمه للتفوق. ولم تعد للبطولة «الأخـيليه» قيمة فى تغلب الفـرد على غيره وأقوى الناس جـسما أصبح ضعـيفا جدا أمام المسدس يحمله أضعف الناس. وأحـد الناس بصرا لم يعد يستطيع التفوق على من ينظر من خلال التلسكوب أو من يستخدم المكرسكوب أو التليـفزيون أو الرادار.. وأقوى الناس سمعا يستوى وأضعفهم سـمعا أمام ما يستطيعه من يستـخدم الراديو أو التليفون... والعلم يزيد من قوة الإنسان جسما وسمعا وبصرا مـئات الآلاف من المرات بحيث أصبحت الفروق بين الناس عديمة الأثر فى تفوق بعضهم على بعض.

وفى هذه المساواة مفتاح تاريخ المستقبل

ولكنى أرى أن هذه النظرية محصورة فى مـجال العلوم أما الفنون التى تقف وراءها المواهب فأمر لا يمكن المساواة فيه.

كما أن نعمة الذوق ونعمة التذوق لا يمكن تعلمها.

إن الذوق كما يقـولون شىء ليس فى الكتب حتى العلوم من الممكن أن يتسـاوى متلقوها أو دارسوها فى معرفة الحقائق العلمية ولكن يظل الفرق ملموسا محسوسا بين عالم بها وعالم فنان.. فرق بين طبيب فقط وطبيب فنان.. حتى الحرفى حين يكون فنانا يرتفع إلى سماوية الفنان.

***

وفى الكتاب يكشف فصل «سياسة المستقبل» عن كره الدكـتور محمد كامل حسين للسياسة ولعله محق.

يقول: (مازال علم الناس بكل شىء ينمو ويتقدم إلا علمهم بالسياسة. فهى لا تزال تجريبية لا قواعـد لها، ولا يهـدى أهلها إلا مـا يسمونـه الخبرة. والخـبرة فى أعـمال السيـاسة مـعناها الخيـبة

والإخفاق. ولا تزال أغراض السياسة مبهمة غامضة متناقضة، ووسائلها بدائية فجة، وليس لأهلها كفاية خاصة ولا مؤهلات محددة).

وعن الشيوعية والديمقراطية يقول: (مبادىء الشيوعية خير من تاريخها، وآراؤها خير من أعمالها.. أما الديمقراطية فتاريخها خير من مبادئها التى لا تزال تعترف بامتيازات الفروق بين الناس، وكل من المذهبين يحتاج إلى كثير من الخداع تفسيرا لهذا التناقض).

ويمضى المؤلف فى التحليل فيرى من زاوية الواقع أن كلا المذهبين بعيد كل البعد عن تحقيق العدل فى توزيع الثروة. وفى كليهما خداع وتقصير يجعل الفرق بينهما ضئيلا عند تنفيذهما. وأصل هذا العجز أن كلا المذهبين قصر همه على مشكلة التوزيع العادل. ونسى كل منهما أن التوزيع لا يمكن أن يكون عادلا مادامت الخيرات التى يراد توزيعها تقصر كثيرا عن أن تعم الناس جميعا.

وهو يضرب لهذا أمثلة طريفة ولكنها واقعية أو محتملة الوقوع يقول: إذا كانت هناك خمس تفاحات لمائة رجل فالديمقراطية ترى أن تعطيها لخير خمسة من هؤلاء الرجال. والشيوعية ترى توزيعها على الناس كافة، فلا يتحقق بذلك لأحد أن يتمتع بها. وإذا كانت هناك عشر أسر لمائة مريض فالديمقراطية تعطيها لأشد الحالات مرضا -وهو حسن- أو لأكثر المائة ثروة -وهو قبيح- والشيوعية تعالج المائة، كل منهم لا ينال غير عشر العلاج الواجب له. فكلا المذهبين يحاول مستحيلا حين لا يكون هناك من الخيرات ما يكفى حاجة الناس.

والحل العادل عنده للمشكلات الاقتصادية، والحل الذى يحتم التاريخ نجاحه، لا يكون إلا بزيادة الإنتاج.

والدكتور محمد كامل حسين يسخر من نظرية المستبد العادل فى طرافة إذ يقول: (الواقع أن المستبد العادل شىء خيالى كما نقول إن خير حيوان يكون الفيل الطائر الذى يجمع بين القوة والخفة.

ولكن هذا الحيوان غير موجود كذلك المستبد العادل، لا يمكن وجوده ولابد من الاختيار بين الاستبداد والعدل).

وعنده أن السلام العالمى لا يتحقق إلا بزوال آخر إمبـراطورية وتداعى إمتيازات الدول بعضها على بعض وسيتم هذا فى المستقبل القريب فإن الإرهاب القائم على قوة القتل والتهديد به، وتفوق بلد على بلد، واستغلال أمة لأمة عن وعد أو وعيد.. كل ذلك فى دور الجزر السريع، وكل محاولة تريد بها الأمم الكبيرة أن تبـقى على ما تتميز به، سواء أكان ذلك بالإرهاب أم بالتـرغيب، ستؤدى إلى الإسراع فى زوالها.

وهنا يقول: لنذكر أن الأمم المثقفة أعز منالا عـلى الأمم الكبيرة من الأمم الصغيرة التى تحاول أن تحمى نفوذها بالقوة المادية.

***

وبعد فهذه لمحات فحسب من هذا الكتاب القيم.

obeikandl.com